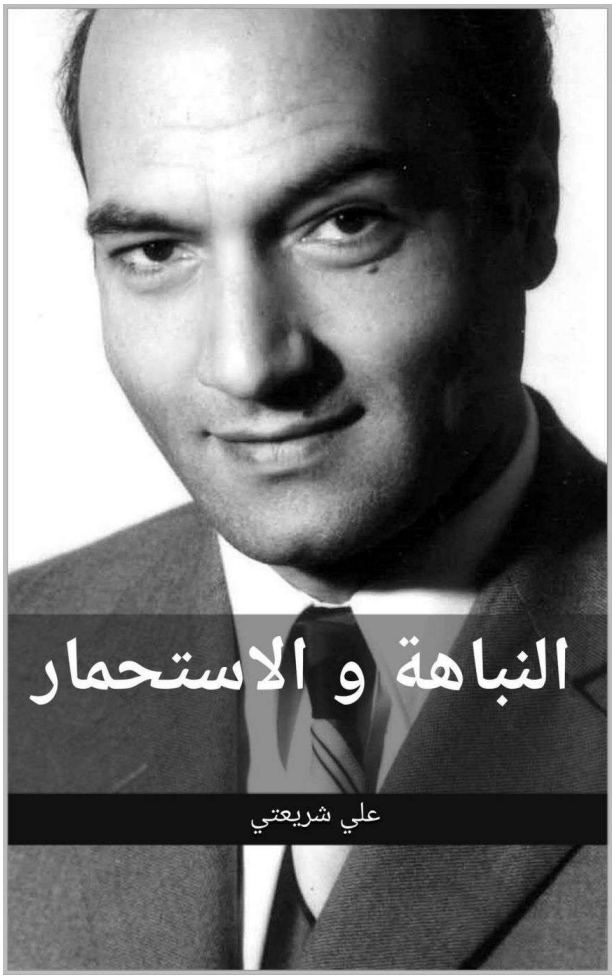
النباهة و الاستحمار
علي شريعتي

النباهة و الاستحمار

* * *

علي شريعتي

بسمه تعالى

الحمد الله رب العالمين، و الصلاة و السلام على محمد، و آله الطاهرين، و بعد، فهذه محاضرة ألقاها الدكتور علي شريعتي، رحمه الله، في قاعة حسينية (ارشاد) ، بطهران، و قد سجلت على اشرطة، ثم نقلت على الورقة، و جمعت بين دفتي كتاب، سمي (خود أكاهي استحمار) أي (النباهة و الاستحمار). و نحن نقدمها لقراء العربية، آملين الاستفادة منها، و الله خير موفق و معين.

الفصل الاول

إن الحالة الخاصة التي نعيشها، تفرض ان نقول كلمتنا الأخيرة اولاً، و أن نقرأ الكتاب من آخره؛ و من هنا فإن الموضوع قد يبدو مملاً للذين لم يتعرفوا بعد على الظروف الفكرية للقضايا التي سأعرضها، و قد يحتاجون لمزيد من التأمل و الدقة؛ و مهما يكن، فأني أعرض في هذه الجلسة، أفكار تحتاج لجلسات عدة، لكن، لعدم توفر الفرص، سأقول في أول كلمتي، ما كان يتبغي أن أقوله في آخرها؛ و هذا مما يزيد في إبهام الموضوع، خصوصاً ان الكلام يدور حول مسائل فكرية و ليس علمية.

و قبل البدء بالشرح و التفصيل، أريد أن أقول: يجب ان نكون نبهين، و لا نتوهم انفسنا مغتنين فكرياً بالكفاءة العلمية، لأن تلك كفاءة كاذبة، و مُدعّي الاكتفاء كاذب، و هذا نوع من الغش الذي يختص به المثقفون و المتنورون في زماننا، لأن المتعلم بعد أن ينال دراسات عالية، و يكتسب معلومات واسعة، و يتعرف الى اساتذة كبار، و الى كتب مهمة، يشعر أنه أصبح مشبعاً بالعلم، و يحس في نفسه رضى و غروراً، و يظن انه بلغ من الناحية الكرية أقصى ما يمكن ان يبلغه الانسان الواعي؛ و لا شك أن هذا انخداع يبتلي به المتعلم أكثر من غيره.

قد لا يفكر الاستاذ أو الفيزيائي، او الفيلسوف، او الاديب، او المؤرخ، أنه يمكن أن يكون لا شيء من الناحية الفكرية، و أنه في مستوى أقل العوام شعوراً، و حتى الأمي الذي لا يحسن الخط مثلاً، قد يكون أرقى منزلة في الدراية الشخصية و في معرفة الزمان و المجتمع. إن بقاء المتعلم جاهلاً، و المثقف فاقد الشعور، و اعطاء كل منهما ألقاباً بارزة، كالدكتور و المهندس و البروفسور لحالة مؤلمة جداً، فيما لو استمر أي منهم. عديم الفهم و النباهة، و الشعور بالمسؤلية تجاه حركة التاريخ، التي تأخذه معها، هو و مجتمعه في هذا الزمان.

إن خطر بقاء المتعلم جاهلاً، و أخرس، و اعمى، و لا شيء لخطر كبير جداً، لأن الانسان إذا أُشْبِعَ بالعلم، لم يعد يشعر بالجوع الفكري، حيث أن المتعلمين في هذه الايام ينظرون الى قضايا العلم منفصلة عن قضايا الفكر.

اختيار المقرر

إن مجتمعات العالم الثالث، في آسيا و افريقيا و امريكا اللاتينية، المتأخرة صناعيا، و التي لم تصل بعد الى مستوى الأوروبيين و الأمريكيين في شتى المناحي الفنية و الفلسفية، ان هذه المجتمعات الفقيرة المتخلفة تملك قدرات هائلة، و تقف مكافحة ضد الغرب، و تجبره على الخضوع و الاستسلام، في وقت بلغ الغرب فيه الذروة من حيث التقدم العلمي و التقني و الفلسفي. و بالرغم من اقدامه على شراء النابغين و المتفوقين من العالم الثالث، حيث أنه مركز المال، و هذه الكفاءات صارت كالسلع المعدة للبيع و الشراء، تتبع المال اينما كان.

إن امتلاك الغرب للميراث العلمي، و احتفاظه بجميع الذخائر في الفروع العلمية كافة، سواء منها تلك التي ابتدعها هو، أو تلك التي أخذها عن غيره، فبلغ بها ذروة التكامل العلمي و الفلسفي و التكنولوجي، لا يمنعه من الخضوع أمام مجتمعات لا تملك أي نوع من انواع الاسلحة، و قد يكون أفرادها حفاة، و لا يمتلكون حتى آلة للدفاع عن حياتهم، و حياة أسرهم. فمن هما طرفا الجدال و القتال في هذا العصر اذاً! ؟

هناك مجموعة من القدرات العلمية و الصناعية، تقاتل جماعة تفتقد الصنعة و العلم، و مصير هذا القتال بعد عدة أشهر و سنين، سيكون لصالح اولئك الحفاة في هذه الدنيا، سيكون بلا شك لصالح اولئك الذين لا يقرأون و لا يكتبون، و ستخسر تلك القدرات التي حازت الذخائر العلمية و الفنية طيلة تاريخ البشر !! فمن يقتتل مع من ؟؟

العلم في معركة مع « الفكر» ؛ هذا الحافي الجائع، الذي قضي عليه ان يبقى فقيراً مريضاً، تسلح بالايمان و العقيدة، و استطاع بنباهته من التغلب على ذاك الذي جمع المقدرات العلمية و الصناعية و الفلسفية البشرية، و ادخر ثروة العالم، رغم كونه أميا. اذاً! هناك شيء آخر، غير الثروة و القدرة و العلم و الفلسفة و التكنولوجيا، شيء لو صرفنا النظر « عن وجوده» لهزمنا أمام حفاة الدهر، و ان كانوا عبيداً مظلومين، لأننا ننهار من الداخل، حتى لو بلغنا ذروة التكامل، كما بلغ الغرب المتحول اليوم (شرط ان نبلغ، لكننا لا نبلغ).

و من هنا تقف المجتمعات التي تريد أن » تختار« أمام طريقين: طريق العلم و الرأسمالية و القدرة و الصنعة، و طريق الفكر و العقيدة. و من المسلم به، أن المجتمع الذي يرتبط بهدف عال، بعقيدة و إيمان، يتفوق على كل قدرة، حتى و لو كانت القوة التي تسيطر على « المنظومة الشمسية» . و ان مجتمعاً كهذا، ستكون له بعد عشر سنين، او خمس عشرة سنة حضارة، كما ستكون له صناعة، و سَيُنتِج على مستوى عالمي ايضا. و هناك نماذج كثيرة في الزمن الماضي، و في و قتنا الحاضر. أما إذا كان المجتمع فاقداً لنموذج يهدف اليه، فاقداً للايمان، و للوعي الشخصي و الاجتماعي و ليس همه الا الصناعة و الرأسمالية، أو ما يسمى اليوم بالتقدم العلمي و الصناعي (فإن وفِقَ لنيل ما يروم، و لن يوفق) فإنه سيبقى مستهلكاً، و ان ظن أنه منتج. و هذه هي الخديعة الكبرى، التي وقعت فيها جميع البلاد المتأخرة، فخسرت ذلك الشيء الذي يَهبُ الرقيق العجوز المحروم قدرة تزلزل العجائب. و هكذا؛ فإذا كنا أصحاب عقيدة، فإنه متى وفقنا ان نجتاز مرحلة الايمان بنجاح، فإنا سنكون صانعين لاكبر حضارة. أما اذا لم نشعر بنقص فكري، و لم تنكشف لنا قضية الايمان و العقيدة، و لم تتضح طريقنا، فإنا سنبقى محتاجين أرقاء للمنتجين، نعتمد على حضارتهم، و نستهلك انتاجهم.

و للمجتمعات المتأخرة، كما يقول فانون، مصير متشابه، و لها حاجات واحدة، لأنها تواجه قدرات متشابهة في زمن مشترك واحد، و عليها ان تختار بين « الفكر» و « الحضارة» من غير ان فكر، و نعني « بالحضارة» ما يخرجه المتحضرون لنا؛ و من هنا، أزمة المثقف اليوم في البلاد المتأخرة، في الشرق الادنى، او الشرق الاقصى، أو امريكا اللاتينية و لا فرق في ذلك.

و لقد كشفت التجارب، طيلة الخمسين سنة الماضية، أن المجتمعات التي بدأت من نقطة عقائدية، و تحركت بعد تحقق وعيها الفردي و الاجتماعي، وقفت اليوم في صف القدرات التي تصنع الحضارة

العالمية. لكن المجتمعات التي اقتدت بالحضارة الغربية ، دون وعي اجتماعي، او شعور انساني بالوعي الفردي، و دون عقيدة، بل بمجرد نهضة كاذبة، قد ظلت مستثمرة للحضارة الغربية، مستهلكة على الدوام، و خاضعة للذل و العبودية تحت سيطرة الغرب، و الامثلة و النماذج على ذلك متوفرة و كثيرة!!

ما اقرب الانسان و هو بعيد !

ان الذي أريد قوله: هو ان الدين(١) ، الدين الذي هو فوق العلم؛ يعتبر الانسان ذاتاً أرقى و أشرف من جميع المظاهر الطبيعية؛ هذا هو اعتقاد الدين، و اعتقاد « الاكزيستانسيالسيين» ايضا، و سارتر نفسه، الذي لم يؤمن بالله، يعتبر الانسان ذاتاً منفصلة عن جميع كائنات الطبيعة، و عنده أن الانسان قطع حبل اتصاله بالسماء، و وكل امره الى نفسه، فهو الذي يصنعها، و يصنع مصيره و هو رب نفسه، مسلط على الطبيعة و مسخر لقواها، خلافا لسائر الكائنات المخلوقة من الطبيعة و المستسلمة لها. و من هنا؛ الكائنات المخلوقة من الطبيعة و المستسلمة لها. و من هنا؛ نرىأن الدين و « الاكزيستانسياليسم» ، و « الامانيسم» يلتقون في نقطة واحدة، تعرف بأصالة الانسان، و رجحان ذاته على جميع مظاهر الطبيعة.

(١) أردت بالدين، غير الدين المتوارث حسب السنن و العادات. لأن الأديان الوراثية كلها متشابهة، و لأن الشيء الذي يُتخذ وراثة و سُنة و اعتياد من غير علم و بصيرة، كيفما كان و مهما كان هو مردود. و لا فرق في ذلك بين الأديان و المذاهب، حيث لا درجات في الجهل. لذا فإن البحث يدور على » الدين الأرقى من العلم« لا الدين الذي لُقن تلقيناً، و تسلمه الخلف عن السلف، كمجموعة عادات و سنن تقليدية مكررة. ان الجيل الواعي يرفض هذا، و لا يستمع له، و رفضه شيء طبيعي، وإن لم يكن قد ألقى هذه السنن و الخصائص الموروثة اللاعقلية في المهملات، فإنه سيلقيها غداً. إن هذا شيء محتوم، يفرضه الوعي. و تلك بادرة راقية اتطلع الى خط سيرها، و أفكر فيه. يتمرد الجيل الوراثي الايراني، على السنن اللاعقلية، التي حُملت اليه، فيرفضها كلها اولاً، ثم يصل الى مرحلة فارغة تماماً؛ هي الوجل و الاضطراب، و البحث و الريبة، و الحاجة الى استكشاف الطريق الذي يجده في النهاية. و اكتشاف الدين بعد رفض السنن الوراثية المتحجرة، هو الشيء الذي يحصل اليوم، لا على مستوى ايران فحسب، بل على مستوى المثقفين في العالم كله. انه الدين الذي يتجاوز الفلسفة و العلم و الصنعة، انه دين المعرفة و التنبه، لا دين السنن الوراثية المنصرمة التي لا يُعرف تاريخها، أهو الي ما قبل الفي سنة؟ أم الى زمان ناصر الدين شاه ! ؟ و كل ما في الأمر، أنها اصبحت مقدسة لقدمها.

لقد رفع الاسلام قدر الانسان، و أكرمه الى حد قصّرت ان ترفعه اليه المكاتب الاومانيستية المصرة على رفعه و اجلاله، حيث جعله الاسلام صفوة الله، و خليفته بين الكائنات، و سخّر له كل قوى الطبيعة، و أمر ملائكته بالسجود أمامه، و التسليم له بالعبودية. أما عمله كعمل الله تماما، و بإمكانه ان يشابهه في العمل، في عالم المادة و في عالم الطبيعة، إن باستطاعته أن يكون خالقاً، عارفاً، مدبراً و مختاراً مطلق القيد من أي جبر. و هذه الصفات الخاصة بالله، نُسبت للانسان في الاسلام بدرجات منخفضة. عارف ذو ارادة، مختار خالق، مغيّر متمرد، و مسخر لكل انظمة الطبيعة، و مغيّر لمصيره التاريخي و لمجتمعه و حتى لذاته.

في كل يوم

هذا الموجود، ذو القيم الالهية، يسعى خلف رزقه اليومي، الرزق القاتل للانسان الحي، انه الهوة التي تغور فيها أعز قيم الانسان الالهية كل يوم. الحياة اليومية، تلك الدورة الرتيبة التي فرضت وجودها على كل المخلوقات، من الجراثيم الى الحيوانات، يقع الانسان في دورانها الأحمق؛ يأكل و ينام، ثم يستيقظ ليكدح و يأكل، ثم يعود يأكل ليكدح فيرتاح، و من ثم ليعمل وقت فراغه، و كيفما نظرت تراه في دوران ممل و متعب، انتاج للاستهلاك، و استهلاك للانتاج، إنها مسيرة الانسان في وقتنا الحاضر، و كذلك كانت في الماضي، شرقياً كان أم غربياً، و في هذا الدوران الباطل تطرأ على الانسان مشاعر خاصة! عقد نفسية، ضغائن، اهواء، و آلام خاصة تُعجِز الانسان النبيه..

قد تشاهدون احياناً احدكم يشكو و يتعب، و ينضج ليعرب عن ألم هو مضحك جداً! و ينتبغي أن نضحك من بلاهته!! و لو أعددنا قائمة بمجموعة الاشياء التي نتمناها في حياتنا اليومية، او نأمل الحصول عليها لننعم بها، او نغبط الاخرين لوجودها لديهم، و نسعى للحصول عليها؛ و لاحظنا ذلك بوعي و انتباه؛ لاستنكرنا انفسنا، و استقبحنا وجودنا ، و استعبنا حياتنا، لأن الانسان عندما يُدرك هذه الاشياء تدريجياً، يدرك القضايا الخارجة عن اطار نفسه و بيته. فيشعر براحة مثلاً لشيء في بيته ليس له مثيل في بيوت الآخرين، و اذا ساعدته الظروف قد يتمكن من شراء قطعة قماش ثمينة، او قد يتأخر في الحظور، فيشتريها غيره، و يلبسها في المحافل بدلاً منه، و عند ئذ تعلو الصرخة، ويلاه !! ما أبأسه و ما اشقاه ! ؟ ثم ما أكثر اللذات و الحسرات و التنهدات، و من التضحية بكل شيء، من أجل الحصول على ابخس الأشياء! ان هذا الانسان، الذي يختال فخراً، و يعلو برأسه الى عنان السماء، نراه يتقبل الذل الى حد يأباه الكلب، من اجل أدنى رتبة و أحقر درجة، بل و حتى من أجل خيال!! من هنا، نعرف قابلية الانسان للصلافة و الشفاء؛ إنها ما وراء كل الموجدات.

و قد ترون انساناً يكاد أن يُصاب بنوبة قاتلة، و هو من شدة الفرحة يجول في داره و يرقص؛ لماذا؟ لأنه لمح سيارة الرئيس في الدائرة صباحاً، فرأى في نظرته اليه شيئاً من الرضى. نصف بسمة ظهرت على شفتي الرئيس، كما تظهر على شفتي صاحب الكلب حينما ينظر الى كلبه، حرّكت فيه اللذائذ!.... و لو اعددنا قائمة بأسماء الأشياء التي نطلق عليها اسم اللذة، الأشياء التي ما زالت تجول في أذهاننا، و نسعى للحصول عليها؛ مهما كانت، لباساً، سيارة، داراً، درجة دراسة، أو مقاماً لرأينا أي غالٍ و نفيس نضحي به من أجلها! نضحي بالزمان و الانسان، بالذكاء و النباهة، بالقابلية و الفخر الالهي، بامكانية التمرد، بقابلية الاختيار الحر، بقابلية قوة الرفض، بقوة البناء و التشييد، بقوة التغيير، بقوة تبديل المصير، بقوة الرفض لكل ما حملنا، و استبدال ما نريد. نفدي كل هذه الأمور، دون أن نشعر بها، و دون أن نملك لحظة من الزمان من أجل ان نتأمل فيها. و هكذا؛ نجد الإنسان في حياته اليومية متجهاً الى خارجه دائماً، و مقبلاً على ما يوفّر له اللذائذ، و مائلاً نحو شهواته، و نجد » أنا« تلك هي من الله تهبط من العرش، الى الحضيض لتنغمس كالدودة في الماء المتعفن بالأقذار. و من ثم؛ تتقطع » أنا« ذات الوجود المتصل، قطعة قطعة، و تقع كل قطعة منها في مصيدة شهوة قذرة، و هوى أجوف، و أمنية سخيفة!! و حاصل ذلك، التضحية بأعز الأشياء من أجل الحصول على أسخفها و أقذرها!

لا اريد ان انصح اخلاقياً؛ فالانسان يمضي ليصير الى الفناء، أما قيمة الانسانية فتزداد دماراً بمرور الأيام. ان أكبر قيم الانسان، تلك التي بدأ منها، و هي الرفض و « عدم التسليم» و ما يلخص بكلمة » لا« حيث منها بدأ آدم أبو البشر. لقد أُمر أن لا يأكل من تلك الثمرة، لكنه أكل، فصار بعد ئذ آدم، و صار بشراً، و هبط الى الأرض؛ و لولا ذلك لصار ملكاً، و صار غيره آدم. و أول ما يبدأ آدم بهدمه في حياته اليومية هو التمرد، التمرد الذي يجعله متشابهاً لربه في الكون؛ لماذا؟ قد يكون من أجل دَيْنٍ، وقّع للوفاء به سفتجات(١) على مدى سنتين او ثلاث او أربع، و لا يمكنه الانكار بعد ذلك، و لا يسعه إلا أن يقول، عند المطالبة به! سمعاً و طاعة، لأن الدين موزع على سفتجات الالهية تذهب ضحية ثلاجة او دار او سيارة، و هذا الانسان لايدري أي شيء خسر، و أي شيء ناله بدل الذي خسره، و لا يدري بأي شيء يتلذذ، و كم هو قدر لذته بنعمة السيارة التي ضمن من أجلها بعدم استسلامه، و قابلية الوهيته، و كونه خليفة الله في أرضه حتى يساوي لذة تمرده و رفضه. لا شك أن من أدرك لذة التمرد و الرفض و النباهة لن يبدلها بأي شيء، و لن يبيعها مهما غلا الثمن، لكن؛ ما الذي حدث حتى بدلنا ذلك بسهولة! ؟ انه لا نباهة لنا، و نحن لا نستقيم إلا بعد أن تعلونا يد قوية، او يُظلل علينا بسوطٍ قاسٍ. ان تلك اليد ترفعنا، من غفلة شغلنا الاداري و العائلي، و حتى من نومنا، لنشعر بما مضى من الزمان ، و ما فات من العمر، و كم بقي منه، و كم سوّفنا من الفرص، و كم ضيّعنا من النعم و القيم لانشغالنا بغيرها. و بعد: ان تلك اليد تخرجنا من بين الأقذار، و تجففنا تحت اشعة الشمس، ثم تضربنا بشدة منبهة: ايها الانسان! أنت! أنت!!

(١) صكوك

العبث

و لنضرب مثلاً؛ هذا » ابراهيم الأدهم« . رجل لا خير فيه، و لا معنى له؛ ذو ثروة طائلة، لكنه عاطل عن العمل، و لا شغل له إلا الصيد. غيره يكدح، و هو يأكل. ماذا يعمل اذاً؟ إنه يذهب الى الصيد، لقد اعتاد عليه حتى أنِسَ به، و صار همه الوحيد، تراه يهش اذا اصطاد وحشاً، فيمتلأ به سروراً و قهقهة. و قد لا تكون له حاجة بلحمه او بجلده، سوى أنه يلتذ بذلك. إنه لداء قذر ان ينصرف انسان بتلك العظمة كلها، الى عمل كمثل هذا ليُشبع نزوة و يحقق لهواً، انها فلسفة حياة » ابراهيم الأدهم« ، إنها أسطورة، لكنها أصدق من الواقع.

وبينما كان » ابراهيم« في صيده ذات يوم، وقفت فرسه في مكانها، و لم تتحرك، كأن شخصاً وقف في وجهها، و اذا بصوت كأنه الرعد، يشق مسامعه: « يا ايراهيم، ألهذا خلقك الله؟» أحجم ابراهيم و تنبه، لسنا واعيين لأمور ننسبها الى انفسنا كذباً، و في الوقت نفسه، نحن محرومون أكثر من أي شخص، وقف ابراهيم، و كأنه لأول مرة تعرف الى شخص، أطلع على وجود عظيم، و هكذا وقف « ابراهيم الادهم» و تراجع، و رجع انساناً يشعر الواحد امام رفيع درجته، و علو مقامه بالصغر و الحقارة.
المتنعم بالذل

هكذا كان! اميراً يعيش في قفص أُعد له من الذهب، كل شيء حوله قد هُيء له، لقد عملوا له غابة، وضعوا فيها صيداً ليكون جاهزاً له متى أراد، و في مكان آخر؛ كانت مسابح، و حول كل مسبح

شجرة من النيلوفر بلون خاص: حدائق، قاعات، ملاهٍ، راقصات، و ذات يوم خرج هذا من القفص، فرأى ميتاً، فسأل:
- ما هذا؟
- هذا مصير الانسان!
- و أنا ايضاً!
- نعم!
- ما هو الموت؟
- الموت حالة تصيب كل حي في نهاية عمره!
- و بعدها كيف يكون؟
- كل واحد، يتبدل الى جيفه، مهما كان، و اينما كان!
واذا، حدث و رأى مريضاً، قال:
- من هذا؟
- مريض!!
ما هو المريض؟
- المرض عرض يصيب الانسان، قبل موته صغيراً كان او كبيرا، قوياً او ضعيفاً!
- يصيبني انا ايضاً؟
- نعم! المرض لا يهتم بحصار و لا جدار و لا حاجب!
و بعد غدٍ قد يقول:
- من هذا؟ النحنية قامته ؟؟
- هذا شيخ عجوز!
- هو مصير محتوم لكل انسان!
- و حتى لي انا ايضاً؟
- نعم، حتى أنت!!
و في آخر، قد يسأل:
- من هذا؟
- هذا سائل مسكين!
- ما هو السائل المسكين؟
- هو الانسان، ذو الفاقة، الذي لا يملك إلا جفنة الشحاذة، ليكون طفيلياً عند هذا و ذاك ليشبع بطنه.

إن هذه الصدمات الاربع، تنبه ذلك الرجل الذي يسرح و يمرح في جنته، غير منتبه؛ يعيش في هدوء و رفاهية، و هو من كل شيء في جهل تام. هذه الصدمات الاربع التي لا تعرف اميراً و لا « بودا» تنبهه. فيدرك فجأة في أي راحة قذرة هو، و وسط أي لذائذ مجوفة كان يعيش، حتى نسي في غوغاء تلك اللذات ثروات مجهولة، و عمدها يتمر، و الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله، هو أن يفر منها« جميعا، و دون حسرة للعودة، او تفكير في عطش، أو حاجة للحياة في قصر بنارس! حراً! حراً!(١) كرأس شجر الخيزران طليقاً من قيد الاعوجاج، و انت الذي في أسر بيتك و ثروتك و سعادتك، كشجرة مليئة بالثمار، و قد تدلت أغصانها الى الارض، و أوشكت على الانكسار، لكن رؤوس أغصان شجر السرو الممتدة نحو الشمس لا تخضع لثقل حمل!! و أنت أنت!! يا من تجلى

الله فيك، انت يا من خصيصتك ال « لا» انت! كالنيلوفر تحت الشمس، تشع داخل مجهول لا تعلمه، فاجعل و حودك ثميناً، و انبذ كل المظاهر و الاهواء التي مزقت حياتنا اليومية، فذهبنا ضحية شهواتنا و أحقادنا و حسراتنا، جانب تلك الامور السخيفة المحقّرة للانسان، التي جعلته لعبة؛ و جسدت فيه خصائص حيوانات كالفأر و الذئب و الخنزير، حيث نسي سيادته و عزته و ألوهيته، و كونه خليفة الله في أرضه، نسي قابليته و قيمته التي لم تُعطَ لغيره. و راح يستهلك نفسه، و يُذلّها و يعبّدها لغيره، و يتملق بسهولة، غير شاعر أنه يضحي بكل انسانيته، بالثناء الكاذب على غيره، من أجل الحصول على بغيته. لكن الذي يُطاطىء رأسه و يتملق له، فانه لا يعود انساناً!! انه لم يشعر بعد، أنه في تعبده و خضوعه لغيره، يخسر شيئاً لا يعرف ثمنه!!

امثال و حكم

كان أحد المدرسين، يعظني مواعظ مليئة بسوء الادب، لكنها، بليغة جداً. كان يعظني و يقول: إنه لا ينبغي على الانسان ان يكون شديداً على الآخرين، بل عليه ان يكون ذكياً محافظاً على منفعته، فلا يُسوّف الفرص. و مضى يقول: ان شخصاً آخر كان ينصحه، و يقول: ان هذه اللحية، (اللحية من علائم شرف الرجل و وقاره) ليست ذات اهمية، و قد تقضي الظروف و المنافع أحياناً، ان يضعها الانسان في ما تحت الحمار! أجل..من أجل المنافع، ثم يُخرجها فيغسلها « بالشاميو» و الصابون، و يُعطرها، حتى تعود لحية و لا شيء عليها! و لم ينقص منها شيء؛ بل تكون قد قضت حاجته ايضاً! هذه هي فلسفة حياتنا قد ظهرت بوقاحة، لكن أعمالنا بدت أوقح منها!!

الفصل الثاني

إن الشيء الذي يدفعني الى نفسي، و يدعوني دائما من خارج هذه المشاغل، التي غالباً ما تجعلني ضحية لها، هو (النباهة الفردية). أو النباهة النفسية تلك التي تدفعني كل حين، لأرى نفسي، مع أنه ليس من أحدٍ، يرى صورته الحقيقية نصب عينيه؛ حتى اولئك الذين يقفون أمام المرآة ثلاث او أربع ساعات كل يوم، ما اتفق مرة أن رأوا أنفسهم! فالمعرفة النفسية إذاً، او الدراية الفردية أو النباهة الموجودة عند الفرد، بالنسبة لنفسه، هي فوق معرفة الفلسفة و العلم و الصنعة. فالأخيرة معرفة، لكنها ليست « معرفة نفسية» أي ليست الشيء الذي يريني نفسي على حقيقتها، فيستخرجني ليعرفني ذاتي، و باختصار، ليست الشيء الذي يلفت انتباهي الى قدري و قيمتي. حقاً: إن قيمة كل واحد منا على قدر ايمانه بنفسه. و لو نظرنا الى انظمتنا التربوية و الاجتماعية، لرأينا مأساتنا بوضوح، فكم حقرونا في هذا المجال! ؟ لقد أذلونا الى حدٍ، بتنا معه لا نؤمن بقابليات قدراتنا ذاتها، أصبحنا نرى انفسنا عاجزون عن الانتقاد، عن الاستفسار، و حتى عن الكلام! صرنا، لا نجرأ ان نتصور اننا قادرون على أي عمل صغير! نعم.. بلغنا هذا المستوى من الضعف و عدم الثقة بالنفس!! و لا شك، أن الجيل الذي يستحقر نفسه بنفسه، يكون حقيراً ايضاً، فسياسة الاستبعاد، حتى يظن هذا الاخير نفسه من أسرة منحطة، و طبقة دنيا، فيسهل عليه عند ئذ تقبل المذلة بصدرٍ رحب، و يلجاء مستسلماً الى حضن الرق و العبودية.
أصغر فأصغر

ماذا عمل بنا الغرب المسلمين، نحن الشرقيين؟ لقد احتقر ديننا، أدبنا، فكرنا، ماضينا، تاريخنا، و أصالتنا. لقد استصغر كل شيء لنا، الى حد أخذنا معه نهزأ بأنفسنا!! أما الغربيون فقد فضلوا أنفسهم و أعزوها و رفعوها، و رحنا نحن نقلدهم في الأزياء و الأطوار و الحركات و الكلام و المناسبات، و بلغ بنا الامر أن المثقفين عندنا صاروا يفخرون بأنهم نسوا لغتهم الاصيلة!! ما هذه السخافة؟ هكذا يفخر الانسان بفقد شعوره! إنه لأمر عجيب! أفلا يكفي الواحد منا فخراً أنه تعلم اللغة الافرنجية، حتى يفخر ايضاً بأنه نسي لغته الأصيلة! ؟ و ما أشبهه عند ئذ بالطفل، الذي تهينه أمه، و تضربه فيلجأ اليها ليأمن من سخطها! هكذا يلجأ العنصر الذي يعتبر نفسه راقياً، و الشعب الذي يعتز بتمدنه و حضارته لتحقير أقوام أخرى، لأجل السيطرة عليها و استعمارها، يعمل الأجنبي إذاً على تحقير دين الشرقي، و ايمانه، أدبه و فكره، كبار رجاله، ماضيه و كل ما لديه، حتى يفر المهان من تلك الأمور التي سببت اهانته، و الاستخفاف به، و يلجأ الى المصدر الذي شنّع عليه و أعابه، فيخرج نفسه على شاكلته، لئلا يقع في إطار تُهَمِه و تشنيعه.

و من هنا نرى أن بعض الأشياء نموذجية! ١٥٪ من مجموع الأوروبيين يأنسون مثلاً بالتلحين الكلاسيكي، أما الايرانيون فكلهم يحفلون بجميع انواع التلحين! و من الذي يجرأ ألا يأنس، فيخالف نموذج الطبع الأفضل، و الذوق المفضل؟؟ و للأفرنجي أن يُعْرب عن رأيه بسهولة، و يقول: اقطع صوت الراديو، لأي شيء؟ لأنه نموذج من المثل الأعلى!

إن الايمان بالنفس، يوفر للانسان شيئاً واحداً هو « الوعي النفسي» ، هو أن يعرف في الدرجة الأولى، لأي عرق و أصل ينتسب، و بأي أمة يرتبط، و الى أي تاريخ، و أي حضارة، و أي فترة زمنية، و اي أدب ينتمي، و الى أي مجدٍ و قيم يمتّ!! هذه عودة الى » الوعي النفسي« و فوق هذا، الى « الوعي الوجودي» الوعي الذي يجعلني اشعر بنفسي، كموجود انساني في ذروة الوهيته. و هكذا؛ عندما أجد نفسي بتلك المظاهر، أعرفها تماما، و آنسُ بها، و لا أعود أتخلى عنها بأي ثمن، و لا يعود ممكناً، المساومة على جزء من لحظات وجودي، و خصوصاً إنْ عرفت من » أنا«! هذه ال « أنا» . تكون عظيمة بعظمة الكائنات، إن هي اكتشفت نفسها قليلاً، و بلغت » وعيها النفسي« .
مجتمع النباهة

المسألة الثانية، التي اسميها « ثقافة» هي الوعي السياسي بالمعنى الافلاطوني للسياسة، لا بمعناها الصحفي اليومي، بل بالمعنى الافلاطوني للبحث المنتخب الأختياري. أي شعور الفرد بمرحلة المصير التاريخي و الاجتماعي للمجتمع، و علاقته به، و علاقته بأبناء شعبه و أمته، و الشعور بانضمامه و ارتباطه للمجتمع، و شعوره بمسؤوليته كرائد، و قائد في الطليعة من أجل الهداية ، القيادة و التحرير. و كل هذه بمثابة مسؤولية ثانية للانسان، حيث ثقافته في ثباته، و تحصينه ضد الاستلاب.

مراوغة

النباهة إذاً نباهتان: « نباهة نفسية او فردية» و « نباهة اجتماعية» . و هي التي يأتي بيانها الآن. فعدوي انا كانسان، و عدونا نحن كمجتمع انساني او عقائدي، هو الذي يسلب منا الوعي الأول، و الوعي الثاني، و لا يعوضنا عنهما إلا جهلاً و فقراً و ذلاً، و حتى، لو عوّضنا معرفة، فهو عدو، لأنه يعطينا معرفة فلسفية او فنية او علمية، و يستلب منا عوضاً عنها النباهة التي اختص بها الانبياء في التاريخ(١) ، يستلهبها، أو يعمل على تضعيفها فينا، لا فرق، فإن علمنا ذلك، فإن سائر القضايا تكون واضحة، و سنفيد في تخمين و مقايسة كل الأمور التي تحيط بنا.
(١) ما كان الأنبياء فلاسفة، و لا فنيين، و لا أدباء، و لا شعراء، و لا علماء؛ بل كانوا أميين من عوام الناس، لكن، لديهم نباهة و وعيا للزمان، و من أجل هذا شرّعوا مسيراً للتاريخ. و حركوه، فصنعوا حضارة، و غيروا مصير مجتمعهم أكثر من أي حكيم، و أحسن من أي ذي فكر، و أي عالم، و أكثر من أي كاتب و أديب. هذه المعرفة النبوية يمكن ان يكون حتى للفرد الأمي، و يمكن ان يكون الانسان عالماً بالمعقول و المنقول، و لديه العلوم الحديثة و القديمة، لكنه بعيد عن تلك المعرفة النبوية الاجتماعية.

لم يعد العدو كالسابق، فهو لا يأتينا بعدّة حربه، كالخوذة و السيف، يقتل و يذبح، ثم يعود من حيث جاء فتعرف بسرعة أنه عدو. لا، ليس كما تظنون، إنه يظهر من أكمام ثيابنا، نعم يظهر من كم الثوب، لا، كما مضى حاملاً سوطه، يسوقه الناس الى صناديق الاقتراع لأخذ الرأي، لقد اختفى ذلك السوط، و صار في دماغ العامل، يسوقه نحو صندوق الاقتراع! و قد سواه على النحو الذي يمكنه من أن يصوّت بحرية، لأي شاء. و إن كان من غير الواضح بعد، كيف يختار العامل بين » غولد ووتر او جونسون« نعم، إنه حر في تصويته، لكن لا يريد غير هذين الاثنين! و ستكون النتيجة واحدة لأيهما شاء ان يصوت!!
اللعبة التوقيتية

أقول: إنه كما تُصنَع الأواني اليوم من مادة المطاط، بعد وضع مادتها الخام في جرة، فتذوب، ثم تُصب في حُفر أعدت على أشكال الأواني، ليُستنتج منها الابريق و القدح و الكأس و غير ذلك من الأدوات التي تُعرض في السوق للبيع؛ هكذا أخذوا يصنعون الانسان! يصنعون الجيل! تُعقد جلسة مشتركة لعالم النفس، و عالم الاجتماع، و المؤرخ، و عالم الاقتصاد، و خصّيص التربية و التعليم، يجلس هؤلاء معاً، يتذاكرون فيما بينهم، تمدهم الثروة، و تساندهم القوة، و يُطالب منهم:

- خططوا !

- سمعا و طاعة، لكن؛ أي انسان تريدون؟ تفضلوا كي نعمل!

- نريد في هذا المجتمع، الافريقي أو الآسيوي أو الامريكي اللاتيني، جيلاً غير قديم، لا يكون ابله يُخضب رأسه بالحناء، لكن ليس عندنا حناء لدينا، أدوات للزينة، نريد أن نوزعها هناك فلا يبقى منها شيء، نعم! نريد جيلاً لطيفاً ظريفاً جميلاً، عارياً من الشعور تماماً طبقاً للمقاييس العالية! نعم هذا الذي نريده لا أكثر و لا أقل!

- سمعاً و طاعة! سيكون بعد أربع سنوات جاهزاً، و نضعه في تصرفكم! و فجأة، و خلال عشر سنوات من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٥٥، ترى أن مقدار أدوات الزينة الأوروبية و لوازمها قد ارتفع في طهران الى خمسماية ضعف.

- جيد، كيف تصنع هذا الجيل؟

- نحتاج الى جيل يرفض الشكل القديم للحياة، و ينكره، ذي فكر جديد، لكن، بالقدر المعتاد لا أكثر. لأنه إذا ازداد تجدد فكره ذرة واحدة سيكون مضراً!! و المطلوب ان يكون له طبع لطيف فلا يشرب اللبن، بل يشرب...الكوكاكولا.

الى هذا الحد فقط، و إذا تجاوز هذا المقدار، فإنه يسبب لنا المخاطر و المشاكل، و يحملنا المبالغ الكبيرة! نعم، هذا المقدار يكفي! يكفي أن يتجدد الى حدٍ يكون معه لطيفاً، فيخلع الأزياء القديمة، و يلقيها في سلة النسيان لكن، لا يتجاوز شعوره الى حد يجعله يبتدع أو يختار نوع أو لون أزيائه من تلقاء نفسه. و كأنهم يقولون: إن الأمر لا يرتبط بك، فأنت لست انساناً حتى تختار!! قلنا، إخلع ملابسك فقط لا أكثر....! نعم، يكون تجدده الى حدٍ اذا قلنا معه « هو» و إن قلنا « ها» ردّد هو ايضا « ها» « ها» ! عليه ألا يفوه بكلمة من نفسه، هكذا نحتاجه نحن!!

- سمعاً و طاعة، سنصنعه كما تريدون تماماً، بلا اختلاف!

و يُصنع ذاك الانسان، يُصنع على شكل يُضْرَب فيه المثل، و على نحو الذي يبيع الثلاجات في الاسكيمو، يبيع التمر في حجر، و يبيع سيارة الرينو المصنوعة من الذهب لرئيس قبيلة أفريقية! و هكذا، يصنعون سيارة الرينو على ظهر جمل، و يحملونها الى رئيس قبيلة، حيث لا توجد في ارضه جادة بطول كيلومترين اثنين، فتربط السيارة أمام قلعته، نعم هكذا يصنعون!! و نحن، لم نشعر بعد كيف صار الأمر، حتى بلغنا بعد عشر سنوات تلك الحالة، و لم نُدرك ما خسرناه مقابل هذه التغييرات و التطورات! و أي شيء هنا، يمكن ان يلفت انتباهنا الى أن هذا الانسان الله، قد بلغ من

الانحطاط حداً جعله يحفل بالرذائل و يأنس بها. نعم! أي شيء يمكن ان يلفت انتباهك - أيها الانسان - الى ما ضحيته مقابل هذه الألهيات و الألعوبات! ؟ و اذا كانت العين و الشعور و المعرفة، و كل المحاسن و المقاييس تردنا منهم، فنأنس باللون الذي يريدون، و نستذوق الطعام الذي يألفون، فمن الذي يقدر إذاً أن يُشعرنا بالذي خسرناه؟ و الذي بقي مجهولاً مقابل تلك الامور؟

ان الوعي النفسي » النباهة« يمكن أن تُشعر الانسان بما فات منه، هذا الانسان، الذي تجاوز الحد في الاقتداء و الاستهلاك لكل ما يقدم له! و يمكن ايضا للوعي الاجتماعي ان يُشعره كيف تجري أمور مجتمعه في الخفاء! نعم! ان الدرايتين النفسية و الاجتماعية هما الشيء الوحيد الذي باستطاعته ان يُنجي الانسان من هذه البلاهة المتطورة الحديثة المغرية. حقاً، و نحن نسمي الدراية النفسية نباهة فردية، و الدراية الاجتماعية نباهة اجتماعية.

عون الظلمة

مهما تطور الفن - الصنعة - فإنه ليس إلا طريقاً للتعجيل في خسارة الانسان، و فقدانه نباهته الانسانية و الاجتماعية؛ و الشعب الذي هاتين النباهتين، يصبح مهندسه خير وسيلة لاستيراد البضائع الغربية الى بلاده، وفنه دلّال ظلم يمهد الطريق للاستعمار، و عالمه موظف أجير بالقوة و المال، يستمد فكره و نهجه في التحقيق من الأجنبي داخل البلاد و خارجها. و هكذا، نرى أن أدمغة العالم الثالث، تنقسم الى قسمين! قسم منها يصدر الى الخارج، ليستهلك في تلك الأجهزة العظيمة، باذلاً نبوغه و قابليته في خدمة الأجنبي، غير عابيء بما قد يخسر، مقابل ألفي تومان تُضاف على الراتب! و قسم يعود الى البلاد، ليشكل الدعامة الخامسة للبلاد، للاستهلاك الأجنبي، و هكذا تُصبح مهمة الأديب و المحقق و الفيلسوف استنزاف الأفكار و تحجيرها، و تغيير الأذهان و تحريفها؛ و يقوم الفنيون و الفيزيائيون و الكيميائيون بمهمة تسمينهم!!

قبل ثلاثين سنة، لم يكن في افريقيا مهندس افريقي واحد! و لذلك، كان المتمولون الفرنسيون، و أصحاب رؤوس الأموال يأتون بالمهندسين من فرنسا، و يُجرون لهم شهرياً خمسين الف تومان. اما الان، و قد شاء الله ان يكون بين الأفريقيين مهندسون منهم، يصلحون لنفس العمل، الذي كان منوطاً بالأجانب، فإنهم يتقاضون ألفي تومان فقط!

إن الشيء الذي ينجي الانسان و الأمة من شؤم الاستنزاف الفكري في طريقته القديمة و الحديثة، هو النباهة الانسانية، التي يتحدث عنها الدين الراقي الذي تجاوز العلم، و الدراية الاجتماعية التي تتحدث عنها الرسالة العقائدية النبوية. و بالأخص للعالم الثالث، و في المجتمعات الشرقية و الاسلامية. و هؤلاء جميعاً سيخسرون إذا ما نظروا للمسائل بغير هذا المقياس. فالمزورون اليوم ليسوا ألعوبة، إنهم يصنعون في الاساس عيناً و نظرة، و لذا، فالافلات من مصائدهم، و الخروة من مضايقهم، و كشف مخططاتهم، يستلزم للانسان ان يبصر، و يعلم في أي مؤامرة غريبة معقدة يدور، و بعدها أي شيء يريدون فعله بهذا الجيل!! و من يغفل عن هذا، سيكون ضحية لمدية في ايديهم، يُسَرُّ لظغطهم عليه، و يرقص لذبحهم إياه! إن بلاهة و حماقة مدهشة للغاية، كمثل هذه تُصيب الأجيال في العالم أجمع، حتى في الغرب نفسه ايضاً لكن الناس هناك، هم غير تلك الأيدي و الضمائر التي تقرر المصير في الشرق.

الفصل الثالث

الاستحمار

لا بد من مقياس للتطبيق؛ فعينان و نظرتان، و دراية انسانية و دراية أجتماعية. و أي دعوة أو دعاية، أي كلام او تقدم، أي حضارة او ثقافة و أي قدرة تكون خارجة عن اطار هاتين الدرايتين، ليست إلا تخديراً للافكار، للانصراف عن الانسانية و الاستقلال و الحرية. و هذا التخدير و هذا الانصراف هما تسخير للانسان كما يسخر الحمار، و من هنا أطلق على هذا العمل اسم « الاستحمار» .

أما الدافع لهذا الاستحمار، فقد بلغ في زماننا درجة من القوة و الشيوع، لم يسبق لها نظير على مر التاريخ، كان الاستحمار في الماضي وفقاً على نبوغ المستحمرين و تجاربهم، أما اليوم، فقد أصبح معززاً « بالعلم» « بالاذاعة و التلفزيون» ، « بالتربية و التعليم» و بجميع وسائل الاعلام، بالمعارض و بعلم النفس الحديث، بعلم الاجتماع، و بعلم النفس التربوي! صار فناً دقيقاً مجهزاً بالعلم؛ و من هنا تصعب معرفته لصعوبته و دقته.

إن أي قضية، فلسفية كانت او علمية، او فنية، و حتى لو كانت قضية تقدم المجتمع و الحياة، فإنها إذا كانت منحرفة عن « النباهة الانسانية» و « النباهة الاجتماعية» ، تظل دعوة كاذبة غاشمة مزورة، عاقبتها الغفلة و الذل و العبودية. و ما الفرق بين ان يكون الانسان « عبداً حديثاً» او ان يكون « عبداً قديماً» ؟ و بين ان تكون تلك « جارية حديثة» او « جارية قديمة» ؛ لا فرق إلا في الكلمات، فذاك يسمي الجارية » ضعيفة« و ذلك يسميها « لطيفة» ، و المعنى واحد، انها ليست بشراً.

فمعنى الاستحمار إذاً في تزييف ذهن الانسان، و نباهته و شعوره، و تغيير مسيره عن « النباهة الانسانية» و « النباهة الاجتماعية» . و أي دافع، لتحريف الفرد أو الجماعة عن هاتين النباهتين، او أبعد منهما، هو دافع استحمار! و إن كان من أكثر الدوافع قدسية. و ما البعد عن هاتين كذلك، الا وقوع في العبودية، و الذهاب ضحية لقوة العدو، و الاستحمار المطلق.

إنه لمن سوء الحظ، ألا ندرك ما يُراد بنا، فَنُصرَف عما ينبغي ان نُفكر فيه كأفراد و مجتمعات ، فيُصيب غيرنا الهدف، و نحن لا نشعر! و من أجل هذا قلت، إنك إذا لم تكن حاضر الذهن في « الموقف» فكن اينما اردت. و المهم أنك لم تحضر الموقف، فكن اينما شئت، واقفاً للصلاة، او جالساً للخمرة، فكلاهما واحد.

ان المستعمرين قد لا يدعونك دائماً الى ما تشاء منه، حتى لا يثيروا انتباهك، فتفر منهم الى المكان الذي ينبغي ان تصير اليه! بل هم يختارون دعوتك حسب حاجتهم؛ فيدعونك احياناً الى ما تعتقده امراً طيباً من أجل القضاء على حق كبير، حق انسان او مجتمع، و قد تُدعى لتنشغل في حق آخر، فيقضون هم على حق محقٍ آخر.

عندما يشب حريق في بيت، و يدعوك أحد للصلاة، و التضرع الى الله، ينبغي عليك ان تعلم أنها دعوة خائن، لأن الاهتمام بغير إطفاء الحريق، و الانصراف عنه الى عملٍ آخر، هو الاستحمار، و ان كان عملاً مقدساً، و قوفاً في الصلاة، أو انشغالاً بمطالعة أحسن الكتب العلمية و الادبية، أو مناجاة مع الله؛ و أي شيء تنشغل به في هذا المجال، يفيد أن المسبب قد استعمرك. و إن أي جيل ينصرف عن التفكير في « الدراية الانسانية» كعقيدة و اتجاه فكري، و مسير حياتي، و تحركٍ مداوم الى أي شيء حتى و لو كان مقدساً، هو استحمار. و قد لا يدعوك الاستحمار الى القبائح و الانحرافات أحياناً، بل بالعكس، قد يدعوك الى المحاسن، ليصرفك عن الحقيقة التي يشعر هو بخطرها، كي لا تفكر أنت بها، فتنبهك الناس و هنا يغفل الانسان، و يتجه نحو « جمال العمل» ، و لطافته غافلاً عن الشيء الذي ينبغي أن يعيه، و هذا هو الاستحمار من طريق غير مباشر.
من التاريخ

اتخذ بنو العباس سياسة غريبة في تاريخ الاسلام، فقد كان المسلمون قبل خلافتهم، إذا أحسوا بخطر يتهددهم، أو رأوا ظلماً من الخليفة أو قرابته، عطّلوا أشغالهم، و تركوا الاسواق، و هرعوا الى المساجد، يصيحون و يستغيثون، و يدعون الخليفة للمحاكمة و العدل! كان هذا شعور المسلمين الاجتماعي، زمن النبي (ص) و في عهد ابي بكر و عمر و علي، و حتى على عهد بني أمية! و من الواضح أنه لا يمكن حكم أناس كهؤلاء بالسهل و الدعة، حيث يصعب الظلم، و السيطرة عليهم مع هذه الجرأة و الجسارة! لقد كانوا أهل دراية اجتماعية و انسانية!! لماذا؟ لأنهم مسلمون ملتزمون اجتماعياً بشدة و حرص، اذا سمعوا الآذان هرعوا الى الصلاة، ليحاسبوا أنفسهم، و يفكروا في مصيرهم؛ و حينما رأوا الخليفة عمر، ذلك الامبراطور الذي فتح لهم مصر و ايران و بلاد الروم، يرتدي ثوباً، من الغنائم الحربية، و هو أطول من أثوابهم بقليل، علت أصواتهم بالمعارضة، و تقسيم الغنائم بالمساواة، لقد صاحوا: لأي شيء ثوبك أطول من ثيابنا؟ و هم لا فرق عندهم بين عمر، أميرهم، أمبراطور الشرق و الغرب، و بين جندي من الجنود. لقد أجبروه على المحاكمة لأول مرة، و بدلاً من الثناء عليه، و اجلاله لفتح ايران و الروم، طالبوه بالعدالة! انظر الى تلك الأمة، و الى اهتمامهم و التزامهم بمصيرهم، و هم يستطيعون ان يرفعوا ايران المتحضرة في العهد الساساني بأطراف أصابعهم، و يلقون بها اينما شاؤواو و فعلاً قلعوها، و لا يُعلم أين ذهبت! و لهذا كانوا قادرين على فتح بلاد الروم كلها، و لقد استطاعوا فتح مصر، و اخضاعها بثلاثة آلاف رجل.

أناس يغيرون مجرى التاريخ، و يهتمون بمصيره بدقة و ولع!! لقد أجبروا عمر على الحظور الى المسجد، ليجيب الناس بنفسه من غير ممثل او ناطق عنه! و من ثم، يأتي بابنه عبد الله شاهداً معه، ليخاطب الناس و يقول: ان سهمي من القماش لم يكفني ثوباً لطول قامتي، و قد أعطاني ابني عبد الله سهمه من القماش، فاضفته لصنع ثوبي هذا، و باستطاعتكم ان تفتشوا، و تبعثوا وكلاء منكم، لتتحققوا كيفما شئتم؛ فإن عبد الله ليس عنده من هذه الغنيمة...وهكذا رأوا عمر بعد التحقيق.

واضح إذ أنه لا يمكن حكم هؤلاء بسهولة، و لا بد من استنزافهم تلك » الدراية السياسية« التي يذكرها افلاطون، و سلبهم تلك » الدراية الاجتماعية« النبوية النيرة التي ذكرتها. و اذا سُلبت هذه، لا يبقى بعدها شيء ذو خطر، و إن شاؤوا ان يكونوا علماء أو فلاسفة، فليس بذي اهمية، حيث نصفهم كأبي علي ابن سينا و النصف الاخر كالحلاج و جميعهم ليسوا سوى خدمٍ للخليفة. و هل كان ابن سينا، الرجل الذي طبّقت شهرتُه الآفاق، غير قلم الكاتب « لجلالة الخاقان» ؛ واضح، أنه لو لم

يكن ذا شعور لكان أفضل! نعم..هكذا يصير الانسان إذا لم يكن له هدف، و لا يفيده علمه و لا فنه و لا مكانته.

و ماذا عن كبار علماء الفنون الجميلة، و أهل الصنعة! ؟ تراهم يصنعون « عالى قابو» و يصنعون » الف ليلة و ليلة« في دار الخلافة في بغداد!! طبيعي أنه لو لم يكن لنا لكان افضل! إذ، ما هي فائدة هذا الفن، و هذا العلم! ؟

وبعد..يأتي زمان بني العباس، و يتزوج جعفر البرمكي العباسة، و تُعمل وليمة الزفاف، لقد طبخوا من الطعام، ما أُخرج باقية من بغداد بعد عدة أيام، فإذا هو جبل من الطعام، و بعد أن تغدت منه الطيور و الحيوانات أياماً، تعفن باقيه في المدينة، و أخذ يهدد صحة الناس و سلامتهم، مما اضطرهم لاستئجار جماعة لابعاده عن المدينة!! و لم يظهر رجل واحد من المسلمين في كل المجتمع الاسلامي ليقول لهم: هذا الطعام الكثير إسراف في الدين..نعم، لم يقل ذلك أحد؛ لا عالم و لا فقيه، لا شاعر و لا نبيه، لا إمام و لا مأموم..لماذا؟؟ لأن » الدراية الاجتماعية« لم تكن عندهم!

وهؤلاء التاس الذين لم يبدوا اهتماماً لذلك، كانوا يجنمعون معاً و يتحدثون، و يتسامرون و يحتفلون، لأنهم اكتشفوا قاعدة نحوية للغة العربية، او عثروا على كتاب في الطب و الأدوية، يريدون أن يترجموه ليحصلوا على وزنه ذهباً!! و هكذا، بلغت الأبحاث الفلسفية و العلمية في زمن بني العباس!! غير أن هؤلاء لم يبق لهم شعور بالنسبة لمصيرهم الاجتماعي؛ فكانت النتيجة، أنه يوم دخول المغول، و اكتساحهم هذه الديار، لم تبق لهم حضارة و لا اقتدار، و لا علوم، و لا ذلك؛ إلا لأن « الدراية الاجتماعية» كانت عديمة، و هكذا نجد أن دافع الاستعمار في زمن بني العباس كان العلم و الحضارة، الفن و الادب، التحقيق العلمي و الفني، الأدبي و اللاأدبي.

الفصل الرابع

انواع الاستحمار

الاستحمار نوعان: استحمار عتيق و استحمار حديث، و هو كالاستعمار تماماً؛ منه عتيق، و منه حديث. و الاستحمار كما ذكرنا دافع لانحراف، او طلسمة الذهن و الهائة عن (الدراية الانسانية) و (الدراية الاجتماعية) ، و اشغاله بحق او بباطل، مقدس أو غير مقدس. و هذا تعريف جامع للاستحمار.

كان الدين دافعاً قوياً للاستحمار القديم، بينما الدافع للاستحمار الحديث هو كل تشاجر، و تحارب ايهامي كاذب، و الوسائل التي يستخدم في هذا المجال هي:
في « الاستحمار القديم» يستفاد من الزهد، الاخلاق، التصوف، الشعر، القومية، تعظيم الماضي و تجليله، الفلسفة، الشكر، الثواب، الشفاعة، الوصول الفردي الى الجنة و دخولها. و في « الاستحمار الحديث» يُستفاد من التخصص، التحقيق، العلم، القدرة، التقدم، الحرية الفردية، الحرية الجنسية، حرية المرأة، التقليد و التبعية.

الدين الاستحماري

بعد انقضاء فترة الأنبياء العظام، الذين بلّغوا الدين واضحاً و صادقاً في ذروة الحقيقة؛ وقع مصير الدين في أيدي قوات استحمارية، مضادة للانسانية، تتسمى بأسماء مختلفة: كالفئة الروحانية، و الفئة المعنوية، و الفئة الصوفية، و فئة الرهبان، و فئة القسيسين و غيرهما.. وهؤلاء اتخذوا الدين وسيلة لاستحمار الناس، افراداً و جماعات، و حيث أن الدين يقتني بهم، و بالأخص الاسلام الحنيف الذي يشمل « الدراية الانسانية» و « الدراية الاجتماعية» و « الدراية الفردية» .

و يدور كلامي هنا، حول الدين الاستحماري، الدين المضلّل، الدين الحاكم، شريك المال و القوة، الدين الذي تتولاه فئة من الرسميين، لديهم بطاقات للدين، و اجازات للاكتساب، و فيهم علامات خاصة، تنم عن احتفاظهم بالدين، و بأنهم الدعاة.

و السؤال هنا: لأي شيء يُسخّر هذا الدين الناس كالحمير؟ بل، ماذا يفعل هذا الدين بالانسان فيستحمره؟ علماً، أنه ليس باستطاعة الدين ان يسلب من الانسان « نباهته الفردية» و مسؤوليته عن مصيره و مجتمعه. لعله يقول لك: دع الدنيا، فإن عاقبتها الموت، و ادخر كل هذه الحاجات و المشاعر و الأمنيات الى الآخرة، الى ما بعد الموت! و ليس الفاصل الزمني بكثير، ثلاثون أو أربعون أو خمسون لا قيمة لها!! بعدها كل شيء طوع ارادتك، و تكون من اولئك الذين هم فيها خالدون! نعم.. انها سنوات العمر القصير، لا قيمة لها، دع الدنيا لأهلها ! و لا شك أنه يقصد بأهلها نفسه... و ذلك الدين يسلب مني مشؤولياتي تجاه مجتمعي بطريقتين:

الأول: يأخذ مني امكانياتي و مواهبي التي امتلكها، و يحرمني منها، و لما كان عليّ أن أرفض الظلم من أجل الحاجة الى العدالة، فإن دين الاستحمار يدعوني الى السكوت عن الظلم و الفقر، و الصبر؛ و يكلني الى « العباس»(١) ، و يزيح عني كل مسؤولية!!
(١) العباس بن علي بن ابي طالب استشهد في كربلاء مع اخيه الحسين (ع)

الثاني: حينما أرى نفسي مقصراً، خائناً، مسيئاً الى المجتمع و مصيره، فأقع تحت ضغط ضميري، و تجرني « الدراية الاجتماعية» الى أن أُرْجع حقوق الناس اليهم، و استسمحهم فيما فرطت في جانبهم، إلا أنك غير قادر على أن تُرْجع اليهم حقوقهم، ثم ليس هذا صواباً! و هناك طريق أسهل.. و هو: أن تقرأ و انت متجه الى القبلة، هذه الكلمات ست مرات.. و بعدها، لا يبقى عليك شيء، و ستُغفر ذنوبك كلها و تنال الشفاعة و العفو و الرحمة!

أجل! إن رب هذا الدين سيعفو عن جميع السيئات و القبائح و المنكرات بسهولة، و سيمحو ذنوبك، و لو كانت عدد رمال الوديان، و نجوم السماوات، بنفخة واحدة!! و هكذا؟ تتسائل أنت: لأي شيء أتحمل ثقل المسؤولية الاجتماعية، إذا كان واجبي نحو الناس، و حياتهم يلزمني أن أموت من أجلهم، و أضحي بنفسي في سبيلهم! لِمَ هذا؟ و هناك طريق أسهل، انه » كتاب الادعية« فهو يفتح لي أبواب الجنان، من غير تعب و لا نصب، و دون مشقة أو أجهاد فكر، و بالتالي دون أي مسؤولية.

إنه الدين المستحمر، الذي يقول لك: يكفي أن تُدْخِل السرور الى قلب واحد، او تقضي حاجة آخر، حتى تمحي كل ذنوبك، و تُبدل سيئاتك حسنات، و تُقضي عنك كل المسؤوليات الاجتماعية.

والخلاصة: أن الدين المستحمر، بكل استيفاء حقي، و الأخذ ممن ظلمني الى ما بعد الموت، هذا بالنسبة لي و أنا مظلوم، أما عندما أكون ظالماً، فإنه يعلمني ألا استرضي المظلوم، بل، عليّ أن اطلب رضا ولاة الله و الدين!!(١) فتصبح اولئك لي، بالنيابة عن جميع المظلومين، و حتى عن الله على جواز دخولي الجنة...

ومن هنا نتبين أن دين الانحراف يدعو الطرفين، الظالم و المظلوم الى الاستحمار، و يُبَدّل كل القضايا الى مسائل ذهنية، و يتكفل برفع كل المسؤوليات الاجتماعية عن كاهل كل صالح، و غير صالح بسهولة و بمكر خاص! لا يعرفه سوى ولاة الله الرسميون، و الوسائط الرسمية المدربة.
(١) فيصادق اولئك بالنيابة عن جميع الذين ظلمت، و حتى نيابة عن الله على جواز دخولي الجنة.
الزهد

الزهد نوع من الاستحمار، لأنه يأمر الانسان أن يترك حقوقه الاجتماعية، و حاجاته الطبيعية جانباً، و يقطع حبل الأمل منها جميعاً! و يُبقي الأنسان مرتبطاً بحاجات بسيطة جداً، لا تتجاوز حاجات الحيوان. و كذلك، يسلب الزهد من الفرد درايته النفسية، و يمسخه حقه من التمتع كإنسان، بجمع المواهب، و النعم، التي خلقت له في الدنيا، و ليس لأحد أن يمنعه من التمتع بها. و في النهاية، يسبب الزهد حيلة لصاحبه للانزواء و القناعة و الاكتفاء بالقليل من الطعام، و باختصار يدعو الزهد الناس جميعاً لترك حقوقهم، و التخلص من حطام الدنيا لصالح اعدائهم، أصل الحرص و المطامع، و لهذا نرى الزهد وسيلة لتنفيذ الظلم.

الشعر

لاحظوا نموذجا من الشعر، في كتاب يعود تاريخه الى ٦١٨ هجرية، و هي السنة التي دخل فيها المغول الى ايران، و خربوا بلخ، و نهبوا كل الشمال، و تركوا ايران تسبح في لجة من الدماء. يقول فيه كاتبه: « انا هارب و فار. نحن لكنا في حالة هرب، لأن المغول جاؤوا الينا... انهم أتونا، و ها نحن نفر طلباً للنجاة!» . في تلك الظروف، و في تلك الجال، كان المؤلف ينظم الشعر! فإلى كم يرتفع الصلف، و الى أي حدٍ يصل الاطمئنان! و شاعرنا ينظم قصيدة من مائة بيت، يرتب الكلمات و العبارات على نهج، تقرأها فيه فإذا هي قصيدة في مدح الخاقان، و إذا قرأتها على نحو آخر، تصبح غزلاً... و هذا النوع من النظم يسمى « صنعة المطير» ، مأخوذة من الطير.

و قد تقرأ القصيدة على شكل الشجرة، كأن توضع الكلمات مكان الأغصان و الأوراق و الأثمار، فيكون الشعر من نوع الرباعي في وصف مولى؛ و يقال لهذه الصنعة صنعة التشجير، مأخوذة من الشجرة. ثم إذا قُرأت بعد بترتيب كلماتها على شكل بقرة او حمار تكون مدحاً للخاقان! فأحسبوا معي، الى كم من الزمان يحتاج الانسان، ليُدخل سبع او ثماني قصائد غزلية، و رباعيات، بعضها ببعض، ليخرج للناس صنايع مختلفة! لا شك، أنه أمر يحتاج الى مزيد من الفطنة و الدهاء، ليكون الشاعر قادراً على نظم قصيدة، تقع الكلمة الثانية من البيت الأول فيها، موقع الكلمة الثانية و العشرين في منظومة غزلية، و تقع الكلمة الحادية عشرة من المصراع السابع في بداية شعر رباعي، و الكلمة، الثالثة من المصراع السابع في بداية شعر خماسي (هذا الى جانب الوزن الخاص، و المضمون الخاص لكل نوع من تلك المنظومات!). لا بأس إذاً، لكن ما الفائدة من هذا العمل؟ فبينما كان جنكيز خان يجول البلاد طولاً و عرضاً، ينهب و يحرق و يقتل، يفر هذا الشاعر على وجهه طالباً النجاة، و يقوم بعمله هذا في حالة فراره؛ فانظروا معي كيف يُمسح الانسان، ألا يكون ضحية الاستحمار.

و في طهران ايضاً؛ كان هناك شاعر فصيح، ينظم باللغة العربية؛ إلا أنه ليست لديه القدرة على نظم الشعر القومي و الحماسي و استخدام الصنائع البديعية. و كان في الوقت نفسه، رئيس مكتب الاسناد و الزواج و الطلاق، و عندما حاول ان ينظم شعراً في موضوع ما، لم يوفق، فعمد الى جمع كل المطالب الخطية التي وزعتها دائرة تسجيل الاسناد العامة على مكتباتها الرسمية من سنة ١٣٢٠ و ١٣٢٧، أي في الفترة التي كانت ايران، تعاني فيها الضغط من احتلال أربعة جيوش أجنبية!! إن هذا مصاب بداء الشعر! انظروا الى الفترة الزمنية بين سنتي ١٣٢٠ و ١٣٢٧، تجدوا مصير ايران، و حكمها، و وجودها، و حروبها الداخلية و الخارجية، و الأطراف المتنازعة فيها؛ من أهم الأحداث، بينما يمضي هذا الأديب ليُخرج لمجتمعه، ذلك العمل الفني الرائع! انه الاستحمار بواسطة الشعر!
القومية

كان الألماني البائس، زمن هيتلر، يعض على » صندويجة« و يقول بزهو و غرور: أنا عازم على الحرب! و لو سألناه: لأي سبب تحارب؟؟ لأجاب: هناك في امريكا، خمسة ملايين من العرق الجرماني، أريد أن أرجعهم الى المانيا، كي لا يتلوث أصلهم، فينمزج بسائر القوميات!

حقاً: ما أسخفه؛ إنه يموت جوعاً و بؤساً و فاقة، و لا يشعر بذلك، بل، لا يدرك مدى تأثير الدعاية المزيفة عليه، انه يريد اخراج خمسة ملايين نسمة من الأصل الجرماني، اخراجهم من امريكا، و

العودة بهم الى المانيا، كيلا يختلطوا بالعروق الأخرى، فيتلوثون، لا عمل له غير هذا، لقد تمركز الاستحمار في قلبه!

الفخر بالماضي و الاعتزاز به

كان ايراني و مصري يتحدثان، و يفخران بماضيهما، (المصري يعتز و يفتخر بالأهرام، و قبور الفراعنة، حيث يخرجون جثماناً دُفن قبل خمسة آلاف سنة، و يأتون به الى الساحة « نموذجاً» ، و لم يدركوا أن هذا المرحوم، كان في حياته، ابن جرثومة قذرة، فكيف تكون ميتته نموذجاً؟). خاطب المصري زميله الايراني(١) قائلاً:

قيل إنه عثر في أهرامنا على بكرة و أسلاك و خيوط، فاتضح بعدها أنه كانت لدينا آنذاك، أجهزة مخابرات سلكية!! فرد عليه الايراني: نحن في ايران، كلما تحققنا و فتشنا في آثار (تخت جمشيد) لا نعثر على أثر بكرة أو أسلاك أو خيوط، و من هنا يتضح أنه كانت لدينا آنذاك، أجهزة مخابرات لاسلكية!... نحن نفرح بهذه الأشياء، و نفتخر بقضايانا القومية البائدة! بينما لدينا آلاف النوابغ، و الأسانيد التاريخية و العلمية في الحضارة الاسلامية، نحن نعرفها، و العالم كله يعرفها، و هي شواهد على قابليات الفرد الايراني. لكن، الاعتزاز بالماضي، و اللجوء الى القضاء و القدر و الشفاعة و الثواب، و الشكر و التشويش النفسي، و عقدة الذنب، و الفوز الفردي بالجنة، من أدوات الاستحمار القديم. كلها تحث الانسان على متابعة أعماله بنفسه، منقطعاً عن الناس، باحثاً في كتب الأدعية عن طريقه الفردي الى الجنة! إن هذا أكبر استحمار، و أكبر مصيبة تُصيب المجتمعات الدينية أن تقع في الاستحمار عن طريق الأديان المحرفة.

(١) بأي شيء يموهون على الانسان، يعدمون المفاخر الموجودة به، و يسلبونه القدرات الحالية، و لا يعتنون بها، ثم يفخرون! و هذا الشاعر الموسوم بالعراقي، الفاسق المنحرف أخلاقياً، يتجول في البلاد، و كلما دخل بلداً أفسد فيه، و إذا طلبه هرب الى بلد آخر، و أفسد فيه ايضاً، إن هذا دأبه. لكن، انظروا الآن، ما يعمل له من تجليل و تعظيم و تكريم! فكل سنة يطبع ديوانه مرة، و شعره، يقرأ كل ليلة من الأذاعة و التلفزيون، و تعطى لشعره و أدبه الأولوية في التحقيق؛ بينما لدينا قابليات شعرية و أدبية حية و موجودة، من دون أن يعتنى بها أو يشجع اصحابها؛ في الوقت التي هي اثمن و أرقى من النواحي الأدبية و الانسانية مما قاله ذلك المتهور. لكنها ضائعة! و قد تبقى مهجورة، فتبلى و لا تسمح الظروف المالية و غير المالية بطبعها، و يبقى أهل تلك القابليات، يخطون بأقلامهم ليلاً نهاراً لسد جوعهم، و جوع من يعولون به، و قد يتحول احدهم الى حارس بوابة أو محاسب شركة، لماذا؟ لأن قيمة الأشياء و أثمانها، تعلوا و ترقى بالنسبة لقدمها!!

الشكر

و لا أعني الشكر الذي يوصي به الدين الصادق، دين المعرفة، الذي هو عبارة عن دراية الانسان، و وقوفه على قيمه، و معرفته بالنعم و المواهب الموجودة عنده، اقصد الشكر الذي تقول به فلسفة الدين المزيفة، أي الشكر على التعاسة و النخاسة، الشكر الذي هو فلسفة العجز و الفاقة! كان يقول! » إنه كشكر ذلك الرجل الذي كان يقول: » الحمد لله الذي لم يجعل آذاننا تحت آباطنا«« . حقاً، إن هذا لبائس تعيس، لأنه لم يجد نعمة غير هذه يحمد الله عليها، فهو يفتش عن أي شيء يشكر الله عليه، و ماذا لو كانت آذاننا تحت آباطنا؟ كنا سنجبر على رفع الآباط كلما تكلم أحدنا لنسمع ما يقول!! و ستكون الكيفية مضحكة جداً... أما الآن، فنسمع دون ان نحرك ساكناً، إذاً.. لك الشكر يا الله!!

و مثل هذا، من أن أحدهم كان يأكل « ترياً» و يشكر الله! فسمعه واحد، فقال له: ألا تخجل؟ على أي شيء تشكر الله! ؟ و يذكرنا بالمناسبة؛ أن » مقدساً« من الأشراف، كان يرقى المنبر أيام شهر رمضان رجاء للثواب، و كان يشكر الله مرة كل يوم كجزء من ثلاثين شكراً، حيث كان يكتشف كل يوم نعمة جديدة. و اذا سأله العوام يوماً علام تشكر الله؟ يجيب، أنه غداً يوم القيامة، إذا جاءت ملائكة العذاب، و سألتكم، لِمَ أذنبتم، و قد أعطاكم الله عقلاً و شعوراً و قوة و فطنة و قابلية؟ و حيث انتم عوام، لا تعرفون كيف تجيبون، عليكم أن تشكروا الله لخلقه أناساً مثلنا!!

وغداً، يعود هذا القديس، فيصعد المنبر، و يضج الناس بشكر الله، و عندما يسألونه؛ يجيب: ليتصور أحدكم أنه جالس في ليلة من ليالي الصيف على سطح داره، و قد وضع أمامه كأساً فيه سكنجبين(١) ، و أضاف اليه خياراً، و مقداراً من حب القنّب، ثم قطعاً من الثلج؛ فصار الجميع كالبرد، ثم يضع ذلك الكأس عند رأسه و ينام. و في منتصف الليل، يمر جبرائيل من السماء، و يرى الكأس، فلو كان مخلوقاً على النحو الذي يمكنه أن...لفاجأت كأسك و قد...جبرائيل. و بعدها، ماذا كنت تعمل؟ أما ان؛ و قد خلق العلي الأعلى جبرائيل على نحو لا يمكنه أن... إذاً، اشكروا الله بصوت عالٍ..هذه فلسفة حياتنا!! و إنا و إن حسبناها سخرية إلا أنها فلسفة حياتنا.

ثم.. انظروا الى عامة شعبنا، كيف اقتنعوا و رضوا.. ثم الى اولئك المقدسين المتدينين، الى أي حدٍ هم أقنع و أرضى! انه الشكر الاستحماري، المعاكس للشكر على » معرفة النعم« تماماً. و لو وافقناهم على هذا الجهل، و هذه الغفلة عن » النعم« ، التي سلبت منهم، و هم يكررون الشكر لله، لوصلنا الى اسوأ من هذه الحال!

انظر دائماً لمن هو دونك! لو كان هذا صحيحاً، لما كانت هناك حاجة للتقدم، و لو اقتصر الأمر، على أن ننظر نحن الى افغانستان، فنقع، و ينظر الأفغانيون الى اليمن فيقنعون، و ينظر اليمنيون الى موزمبيق فيقنعون، لما كانت هناك حاجة للتحرك أيضاً، بل لأي شيء نتحرك؟ ان هذا النوع من الشكر هو فلسفة الرجعية و هنا لدي سؤال، و هو هل أن المتجددون مصابون باستحمار فلسفة الشكر الحمقاء، لكن بصورة جديدة و محترمة و هل هم كاولئك في البلاهة، راضون شاكرون بما لديهم؟ لكن لو نظرتم الى رضاهم من أجل أي شيء و أي قضايا؟ لعلمتم أنه نفس شكرهم الأحمق السخيف!!

الفصل الخامس

أشكال الاستحمار

للاستحمار شكلان: مباشر و غير مباشر. فالمباشر منه، عبارة عن تحريك الأذهان الى الجهل و الغفلة، أو سوقها الى الضلال و الانحراف. أما غير المباشر، فهو عبارة عن الهاء الأذهان بالحقوق الجزئية، البسيطة اللافورية، لتنشغل عن المطالبة او التفكير بالحقوق الأساسية و الحياتية الكبيرة و الفورية. فمثلاً، لنفرض انني أنا قيم على صغير، و أريد أن أُلهيه، فأختلس ممتلكاته، و أنقلها بأسمي، دون ان يعلم! فقصدي إذاً أن أختار له أداة استحمار من نوعه. و كل أداة تلهيه عن تلك الخطة التي أعددتها له، كي انفذ إرادتي، دون أن يشعر بقصدي، هي استحمار، و النتيجة أن أداة استحمار أي فرد ترتبط بنوعه.

وإذا ما رأيته جميلاً، ذا قامة متناسبة، فأشجعه على الرياضة ذاكراً له محاسنها و منافعها، فيسير في وادٍ من الخيالات و الأمنيات، كالمباريات، و الألعاب الأولمبية، حيث الشهرة و ما شابه. و إذا رأيته من غير هذا النوع، بل من طراز اولئك المثقفين و المتجددين، فأشجعه على الدراسة و الاستمرار بها، حتى الحصول على الشهادات العالية، و بعدها أعود فأذكر له فوائد العلم، و أن طلب العلم فريضة.. و أعمل حتى أساعده على السفر الى امريكا لاتمام دراسته، و اتكفل بتأمين ثلاثة او اربعة الآف تومان له شهرياً؛ و هو في اميركا، و إذا اقتضى الأمر، إرسال اكثر، و هكذا أفي بكل ما وعدته به! لكن هذا كله ليس سوى أداة مرحلية لاختلاس ثروته و ميراثه.

و إن كان غير صالح للرياضة أو للدراسة، بل هو من نوع اولئك العاطفيين، يهوى العزلة و الخيالات و.. فأشجعه على الصوم و الصلاة و الأدعية و الزيارات، و ابذل له كل ما يريد من أجل نذر و زيارة و جنة و آخرة. و ما ذلك إلا لكي ألهيه، و أقضي حاجاتي معه. و هنا نرى، أن الدين و الرياضة و الفن و الدراية و العلم و الخير و الشر و ما شاكلها أدوات استحمار، لأنها تؤدي للإلهاء و الإنشغال عن الحق الفوري. فأداة الاستحمار إذاً، تُنتخب حسب نوع الفرد، الذي يراد استحماره، و بعدها، يحرّك المستحمرون الفرد نحو ميوله!! و اخيراً، يصبح عندنا جماعة تنشغل بالأدعية، و أخرى تعمل بالرياضة، و فريق منشغل بالفن، و آخر بالعلم، و بعضهم بالتحقيق، و بعضهم الآخر بالزهد، و كلٌ بما لديهم فرحون. فكل شيء اذاً، يشغلني » انا« كانسان، و » نحن« كمجتمع، عن الدراية الانسانية و الدراية الاجتماعية هو أداة استحمار.

المعركة الإبهامية

الحرب الابهامية، هي احدى أدوات الاستحمار، و الإلهاء عن الدرايتين المذكورتين. و لقد ذكر عمي الساكن في قرية » مزنيان« أن سيداً من هذه القرية، عاملة معاملة مضحكة، حيث أن عمي كان يحب » الديوك« كثيراً، و ذات يوم؛ أتى اليه ذلك السيد و قال له:

- في » بهمن آباد« ، بالقرب من قريتنا، تُباع الديوك رخيصة جداً!!

- بكم الواحد مثلاً؟

- انها ديوك جميلة، سالمة و غير اميركية؛ و الواحد منها بخمسة تومين!

- لا! كيف يمكن هذا؟ (ينكر عمي) ، يباع الديك هنا بعشرة تومين؛ و على مسافة كيلومتر واحد من هنا، يباع بخمسة! لا.. لا يمكن هذا!!

- لا يا مولاي! إنه ممكن، أعطني الثمن لآتيك بالديوك!

- خذ.. هذه خمسون تومناً، فآتني بعشرة!

يمضي السيد، و بعد ساعتين، يعود بعشرة ديوك كبار، سمان، الواحد منها بخمسة تومين فقط! فيسأله عمي:

- ألا تريد نقوداً بعد! ؟

- لا.. يا مولاي، و اذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك، فإني آتيكم بها!

و يمر شهران، و يأتي أحد أصدقاء عمي لزيارته من (بهمن آباد) ، فيجلسان و يتحدثان، حيث يقول الضيف:

- ألا تريد نقوداً! ؟

- لا.. يا مولاي، و اذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك، فإني آتيكم بها!

- ان والدة كيك قد وضعت البيض تحت الدجاجة ليكون فراخاً، نذرت كل ديك يظهر منها لك!!

و بعد مدة، ظهر ستة عشر فروجاً، أو سبعة عشر، مات منها أربعة او خمسة، و ظل الباقي و كله ديكه، و لقد ارسلناها لكم بعد تمام ستة أشهر. فكيف كانت الفراريج؟

- أي فراريج؟

- الفراريج التي بعثناها لكم مع السيد!!

- السيد.. أي سيد؟ انه ابتاع الواحد بخمسة تومين، و استلم الثمن!

- خمسة تومين.. ماذا تقول؟ قيمة الديك الواحد في (بهمن آباد) خمسة عشر تومناً! إنه أغلى من هنا!!

- لقد سألت السيد، عن ثمن الديك في (بهمن آباد) فقال: خمسة تومين، و لهذا أعطيته خمسين تومناً، و جاءني بعشرة فراريج!

- لا.. يا مولاي. انه نذر. ما هذا؟ خمسون تومانا!!

(يقول عمي) ، علمت بعدها أن السيد كان في (بهمن آباد) ، و كان صديقنا الضيف قد طلب منه، متى عزم على الذهاب الى » مزينان« ان يأخذ لي معه الديكة. و على هذا، اتفق معه السيد، لكنه جاء الى « مزينان» و قبض خمسين تومانا حتى عاد بالديكة المنذورة!!

و يتابع عمي، أنه بينما كنت و ضيفي نتحدث عن الديكة، حتى فاجأنا بصوت عال:

- مولانا! لأي شيء انتما جالسان؟ و قد أريقت الدماء خلف داركم، فقتل اثنان، و مضى ثلاثة، و هلك آخر.. و أكلت النيران بيت فلان...!

- خرجنا بسرعة و دهشة، نتحقق الخبر، فلم نجد احداً، خارج الدار، و لا في السوق، إلا رجلين يدخنان » الغليون« بلا هم و لا غم! سألناهما: ما الخبر؟ ما الذي وقع؟ اين محل الحادث؟ فأجابا! لم يحدث شيء! عدنا بعدها الى الدار، فلم نجد السيد! لقد أخرج نفسه من تلك الورطة بتلك المعركة الإبهامية، كيلا يقع في المحظور.
ايهام! ايهام!

معركة! مولاي معركة!! يريد أن يُضيّع علينا قضية الديكة، فيقول: معركة! سالت الدماء على الأرض.. يريد أن يموه قضية الديكة، و حتى تبقى القضية مجهولة، يختلق حرباً ابهامية، يقيم قضية « فرعية» الى جانب القضية » الأصلية« فتنشغل الأذهان بها مدة مديدة..!! و من هذا القبيل! معركة الشعر القديم مع الشعر الحديث، و العباءة مع » الميني جوب« ، و الخط الفارسي مع الخط اللاتيني، و المتأخر مع المتجدد، هذه كلها معارك ابهامية فارغة، كمعركة القتل و الدم و النار من أجل ان تبقى قضية الديكة مشتورة.

إنه في الفترة الممتدة بين ١٣٢٠ و ١٣٣٠، أختلقت من ثماني عشرة الى عشرين معركة في ايران، من اجل أن لا تُعرض قضية شركة النفط على الأفكار و الأذهان!! و في القرن التاسع عشر الميلادي، عندما بلغت نشاطات الاستعمار ذروتها، ظهر سبعة عشر نبياً، في فترة لا تزيد على ثلاث عشرة سنة من الصين الى بو شهر في ايران. و ما ذلك، و بينما كان ابناء شعبنا، و أبناء الأمة الاسلامية، يتجرعون الموت من ظلم الاستعمار و ضغوطه، قُتل آلاف الفلاحين الايرانيين في اختلاف عقائدي مداره: هل ان الامام وجود في عالم المادة، أم هو من عالم الروح؟ و الغريب؛ أنه اثناء ذلك الصراع، ظهر مدع ينفي وجود الامام على الوجهين المذكورين، و يقول إنه موجود في عالم سماوي بين اللاهوت و الناسوت؛ بين العالم العلوي و العالم السفلي. ان آلاف الفلاحين قد قتلوا من أجل تلك العقيدة و آلاف من المدنيين البائسين ثاروا ضد مؤيدي هذه العقيدة فقتلوا.

فمن هما طرفا القتال في حرب » العالم السماوي« اثناء القرن التاسع عشر؟ ان طرفا القتال هما: القروي و المدني، مؤيدو عقيدة » العالم السماوي« و مخالفوهم! لأي شيء؟ لنفي او اثبات العالم السماوي! مت؟ في زمن كانت اوروبا تشهد فيه حرباً رأسمالية، حرباً انتاجية، و من هنا جاؤوا ليشعلوا نار حرب » العالم السماوي« . و ما هي تلك الحرب؟ انها الاستحمار!! وكم من حرب باطلة، بلا معنى، تقع بيننا في هذا الزمان، فيتضح عبثها بعد انتصار أحد طرفي النزاع! و ما كل الهتافات و النفعالات التي يتخذها فريق ضد آخر، يتخذها الأب ضد ابنه، و البنت ضد أمها، و الفتى

ضد الفتاة، يتخذها الحديث ضد القديم، و المتجدد ضد المتأخر، إلا معارك تمويهية ايهامية! كتلك المعركة التي قامت من أجل الدية، و عند التحقيق و التفتيش، لا شيء في النتيجة، و المعركة تنتهي لصالح الذي أشعل نار الحرب... و بضياع الفرصة، و هلاك جيل و يأسه، و حرمانه من ثمرة جهوده و كفاحه، يأتي جيل آخر ليواجه معركة تمويهية أخرى.

حينما يقع اصطدام في مجتمع ما، ينبغي ان يُنظر اليه، من زاوية ارتباطه » بالدراية الانسانية« و « الدراية الاجتماعية» ، و كم من مسائل فكرية فقهية، دينية و غير دينية، فلسفية و علمية، تُفرض الآن على الافكار و الأذهان بشكل كاذب و منحرف!! و كم من محاورات و نزاعات، أُجريت حول بعض الكلمات العربية الداخلة على اللغة الفارسية! لقد أصروا على حذف الكلمات العربية من جذورها من اللغة الفارسية! حسناً.. حذفوها! ثم ماذا بعد ذلك؟ لا شيء غير الجدل و النزاع مرة أخرى على حذف الكلمات، ثم العجز عن الملام الصحيح، و التصنع بالبكم و الخرس! انهم يقولون: لقد تحملنا متاعب جمة، الى يومنا هذا، حتى بنينا لغة فارسية بليغة، و ينبغي الآن أن ننقيها حسناً تفعلون، لكن ماذا بعد؟ سفاهة و تفاهة، و القضية شيء آخر!! القضية الحقيقية شيء آخر، و الحرب الحقيقية حرب أخرى! لكن هناك اصواتاً تعلو و تقول! ايها الناس: ان الفاقة و البؤس هما سبب الجهل، و علة العلل في خطنا فلنبدّله إلى الحروف اللاتينية! لقد غيّرت تركيا خطها الى اللاتينية قبل اربعين عاماً، و ما زالت متأخرة، بينما تمكنت الصين و اليابان في خمس عشرة سنة ان تمحيا الأمية من بلادهما، و أن تصبحا في عداد البلدان الراقية المتمدنة، مع بقاء الخط فيهما قديماً. ، حيث هو فنٌ بحد ذاته، كما أن الذين يحسنون قراءة الخط و كتابته يُعدون من علماء تلك البلاد، فأين انتم يا بشر؟ اين تجلسون؟ هذه كلها حروب استحمارية، انها معركة الديكة لتمويه الحقيقة.

الفصل السادس

التخصص

كل واحد يسير في نهجه و تخصصه على نحو يغفل معه عن قضية المجتمع و مصيره. انه كبقرة افلاطون تماماً، عندما يلمس واحد حافرها، و آخر قرنها، و ثالث ذنبها، و النتيجة لا احد يشعر بوجود حيوان! و هكذا التخصص؛ يسبب انغماس الانسان في إطار محدود و صغير جداً، مجرداً عن المجتمع، بصورة يصعب معها لمسه كجسم واحد شامل. و على هذا؛ فالتخصص يعدم الدراية الاجتماعية، كما يسلب الفرد امكان شعوره بنفسه، كانسان مساهم في شتى وجوه الحياة. و السبب في ذلك، كون التخصص يعمل على نمو الفرد من جهة واحدة، و يعطله من سائر الجهات. و الؤال هنا: هل التخصص أمر لازم؟ نعم.. انه أمر لازم، و لا ينبغي ان نعدمه، لكنه، علينا في الوقت الذي نتخصص فيه في فروع مختلفة، ان نحفظ « كليتنا الانسانية» و « كليتنا الاجتماعية» .
العلم

ان الوقوف على حقائق عالم الطبيعة، و الاطلاع على مظاهر الدنيا، من مهمة العلم الذي يؤثر فينا على نحو كاذب، نبقى معه في عطش الى المعرفة! حيث يظن » العالم« أنه ذو نباهة بالنسبة لنفسه و مجتمعه و زمانه. هذا، وهم لانه » عالم« لا غير! و العلم من أجل العلم أداة انحراف، و ضلال عن النباهة الانسانية و النباهة الاجتماعية. و لقد صدق » هاديكر« اكبر فلاسفة عصرنا، و استاذ سارتر، عندما قال: انما العلم و الحضارة ثمرة ظروف متراكمة، عديدة، اصبح الانسان فيها غريباً عن نفسه! أي أنه راح ضحية للتحقيق و العلم و الفن و الحضارة.

فنحن عندما ننشغل بمطالعة كتاب، او كشف او اختراع، فإنا نكون غريبين عن انفسنا (أي نعدم النباهة النفسية) فلا نشعر، حيث نقع آلة بيد العمل، و من أجله. و قد حصلت الحضارة و الصنعة و العلم من مجموع تلك الحالات. ان حصولها كان في حالة ابتعاد الانسان عن نفسه، و عن التأمل فيها، و الاستغراق في شيء آخر؛ لأن عمل الانسان كآلة ينتج عنه شيء آخر، و في مثل هذه اللحظات، ظهرت الصنعة و الحضارة. و من هنا، يضر العلم بالنباهة الانسانية و النباهة الاجتماعية.
القدرة المادية البدنية

و هذه القدرة أيضا مصيبة كبرى، بدنية كانت أم فنية أم اقتصادية، فعندما تتجمع لديّ مثلاً ثروة كبيرة، و تتوفر لي امكانيات كثيرة، قد أتوهم ان الموفِّر لتلك الامكانيات هو « انا» ، و « انا» الذي امتلكها! و هذا انحراف عن النفس؛ لأني جعلت المادة و الثروة مكانه « نفسي» ، و نفيت شخصيتي الواقعية، أو أني، اتخذت المقام الذي وفرته لي القدرة بدلاً من نفسي، أو حسبت تلك القدرة شيئاً من قدرتي الانسانية. فخسرت بذلك « النباهة الشخصية» .

لكن حقيقة الأمر غير ذلك! فقد تكون لبعض الناس قوة جسمية، كقوة الفيل و الجمل؛ بينما ليس لهم من النباهة النفسية حتى قوة العصفور. و هنا ايضاً تضر القدرة الجسمية بالوعي و النباهة! و لقد قيل! « العقل السليم في الجسم السليم» نعم، هكذا، لكن الجسم السليم، غير الجسم » القوي« و غير الجسم « اللامتناسب» و لقد كان بعضهم يقول:
حتى لو بَدُنْتَ، فإنك لن تكون أضخم من البقرة؛ و لو فرضنا ذلك، فعندئذ يحلبونك! و اذا، ازددت قوة ايضاً، فلن تكون أقوى من الحمار، و لو فرضنا ذلك، فحينئذ يحملونك أسفاراً! و ان ازددت سرعة في السير و الركض، فإنك لن تكون أسرع من الفرس، و لو فرضنا ذلك ايضاً؛ فساعة ئذ يركبونك! فالانسان « الواعي» باستطاعته أن يكون قوياً، لكن الى حد يسيطر معه على مصيره. و من هو ذاك الانسان؟ إنه بالتأكيد ليس نابليون القوي، الذي يعبر عن نفسه؛ و هو في جزيرة » سنت هلن«! قائلاً: كأني خشبة صغيرة ضعيفة تلعب بها الامواج كيف ما شاءت... صحيح ، ان الله لا يغيّر ما بقوم، حتى يغيروا ما بانفسهم، لكن؛ إذا غيّر الانسان ذاته و طبيعته، يصبح قادراً على تغيير مصيره و مصير تاريخه، و لا يرتبط ذلك بالجسم و المال و المقام، بل بانسانية الفرد، التي تبقى له فقط...

التجدد او الحضارة الاستهلاكية

يمكن ان تكون الحضارة و التقدم من دوافع الاستحمار.. و في المملكة السعودية مثلاً، نماذج كثيرة من هذا التقدم الاستحماري. فالبدوي البائس هناك سائق سيارة « كاديلاك» التي تساوي ٢٢،٠٠٠ تومناً بينما هي في امريكا ب ٣،٠٠٠ تومناً! هذا البدوي، يقود سيارته في بلد لا تُفْرض فيه غرامة على المتخلفين في قيادة السيارات، و ليس عندهم نظام موضوع للسير و للسائقين؛ لأنه حسب رأيهم » مذموم« شرعاً، و لا يخلو من إشكال. و هناك؛ يخمل الشرطة أعندة من الحديد، يضربون بها على غلاف السيارات المتخلفة بدلاً من تغريمها. و معلوم عندها؛ أن السيارة التي تتصدع في مكان أو مكانين، تُستهلك و تنهار قبل أوانها، ثم ليس عندهم » مصلح« لصفائح السيارات. و خلاصة الأمر، ان السيارة تصبح سنة او سنتين غير صالحة للاستفادة، و كل ذلك للصدمات التي أصابها بدلاً من الغرامة المذمومة شرعاً!! و النتيجة.. لصالح من؟.. يجلس ذلك السائق البدوي، برجليه المشققتين، خلف مقود سيارة « الكاديلاك» او « الشفر» ، يزهو و يفخر الى حد، لا يجرأ عليه الاميركي نفسه! غير أنه جاهل مدى خسارته، و وقوعه في مكر عدوه(١) ، ناسياً قبل سنة أنه كان يرعى الإبل في البادية، و انه تعلم الآن قيادة السيارات!! ان هذا الفخر ليس سوى « الحضارة الاستهلاكية» ، و يجدر أن اقول: أن هذه الحضارة هي اسوأ و اقبح من الوحشة و الهمجية! نعم.. ان الذي يتحضر في الاستهلاك فقط هو دون الوحشي! لأن الوحشي، لا يُعْدم الأمل في تحضيره من طريق الانتاج، لكن المستهلك من غير انتاج، يعدم الامل به طبيعياً. لقد كان لهذا السائق السعودي سبعة جمال أو عشرة في البادية، فباعها ليفي بالقسط الأول من الذين ركبه من شراء سيارة « الكاديلاك» الاميركية. فتأملو كيف تخرج الثروة من تلك البلاد الفقيرة، التي رأسمالها و كل ما فيها تلك الإبل! ثم راح هذا البدوي يكدح و يتعب ليسد الآقساط الباقية! لكن، ماذا بقي عنده الآن؟ قطعة حديد كانت سيارة لبضعة أيام، أما اليوم، فهي صفائح ممزقة تجنباً من أخذ الغرامة!

(١) كحكاية الجنرال « اكيوم» تماماً؛ فإنه سافر مع والده الى افريقيا في بداية صنع الزجاج الملون، و أخذ معهما شيئاً من ذاك الزجاج، فكانا يعرضانه في حفلات زواج رؤساء القبائل فيندهشون من رؤيته! و يعجبون به، فيأمرون باعطائهما قطيعاً من أجود انواع الغنم، و هم فرحون بما حصل لهم من سعادة و توفيق (فانظروا الى الهمة و الكرم).

باع الجمال، و جلس عدة أيام في « الكاديلاك» بدلاً من ركوب الجمل، تهبط السيارة، فينفتح الراديو، ثم ينطفىء متى شاء، لقد أمر أن تعمل لها مقاعد من الليف، و تُعطى الف شكل و صبغة، لتكون عربية! أما الآن؛ فقد بقي هو و قطع من الحديد و... لا شيء!! و لم يعد يسعه، إلا أن يذهب، فيفتش عن مكان للسرقة، او يكون سائلاً او خادماً، أو ينتظر الموت في مكان فيريح نفسه. هذا هو مصيره الحتوم، في بلاد تعادل مساحتها ضعف مساحة ايران، و ليس فيها اليوم خمسة آلاف جمل، بعدما كانت مركزاً لتجمع الجمال، التي ترتبط حياة كل الشعب بها، و هذا العدد القليل من الجمال في طريقه اليوم الى الزوال، من اجل اعفاء السيارات الامريكية من « الغرائم» التخلفية.. انها الحضارة و التجدد.. و خزن قطع الحديد من السيارات الاميركية المتلفة!! فما ابأسهم، و هم فرحون، يشكرون و يحمدون، و يقولون: لقد أصبحنا في جنة، و لو دخلت بلادنا قبل خمس سنوات لما رأيت سيارة قط، و ما كنت تراه جمالاً و شقاوة و تعباً، سيرنا و ترحالنا كله على الجمال، أما الآن، فلله الحمد، طائرات « بوينغ» ، و سيارات مكيفة و...! حتى أصبح أحدهم يستعيبك و يحتقرك، إذا رآك مثلاً في سيارة « بيجو» ، لأن العاديين هناك، يمتلكون « كاديلاك» و « شفرليت» ٧١ و ٧١ فكيف...! ؟ هذا تقدمهم..ظاهر بلا شك!

عندما يدخل أوروبي او أمريكي مدينة الرياض اليوم، سيندهش من التجدد فالسيارات كلها حديثة مائة بالمائة من طراز ال ٦٩ و ٧٢، و ليس لها مثيل في أي بلد من العالم؛ من امريكا الى الشرق الأوسط؛ كل بلد تراه متأخراً اقتصادياً، تراه أكثر تجدداً و تجملاً من غيره!! فعندما تقلع بك الطائرة من باريس، لتهبط في دار السلام عاصمة تانزانيا، تندهش من الجمال و الجلال و عظمة البنايات، و حداثة العمارات، و السيارات التي هي آخر طراز حديث!! فما هو التجمل؟ انه التقدم في الاستهلاك، الشيء الذي يقضون علينا من أجله، ليسلبوا منا أمل الانتاج.. نعم، الشرق كله ضحية الانتاج الاستهلاكي بواسطة التبعية و التقليد الأعمى!!
الحريات الفردية

الحرية الفردية أداة تخدير كبرى لإغفال الحرية الاجتماعية، حيث النباهة الاجتماعية القضية ذات الأهمية الكبرى. انهم ينادون بالحرية الفردية، و يدعونك لها، من أجل تمويه الاذهان، و الغفلة عن « النباهة الاجتماعية» ، حيث يرى الانسان نفسه حراً من الناحية الفردية، في غذائه و شهواته. كقفص فيه طير، و قد وضع في صالة مغلفة تماماً، ثم فتح باب القفص. انه شعور كاذب بالحرية.. لأن الأسير الذي يعلم أنه مأسور، يحاول ان يطلق نفسه، و يتحرر من الأسر، بينما الذي لا يعلم أنه أسير، و يشعر بالحرية، فشعوره وهم و كذب، و هو يشكر الله و يحمده على تلك الحرية المزيفة.
حرية الجنس

لحرية الجنس نوعان اثنان: أحدهما يقدمه الغرب هدية للشرق، و اسمه « حرية الجنس» بدلاً لما ينهيه و يسلبه من المواد الخام! فالغرب يرى أن عليه ان يتحف الشرق مقابل ما أخذه من المواد الخام، و لذا يسمح للشرقيين بأن يكونوا أحراراً من « الناحية الجنسية» بلا قيد و لا مانع.. و بعد

ذلك، تأتي أجهزة الدعاية، و المواصلات الجماعية في الشرق لتؤكد و تدعو الى » الحرية الجنسية« عند جبل يتراوح سنه بين ١٨ و ١٥ سنة. و على هذا، رأى الغرب من اللازم عليه ان يلهي هذا الجيل و يشغله « بالحرية الجنسية» . و في اعتقاده، ان هذا الجيل يتعرض لحالتين من الاضطراب: احدهما من اجل « الحرية الاجتماعية» و الثانية، حالة الاضطراب و التشويش الناتجة عن » الأزمة الجنسية« ، و هكذا، رأى الغربيون أنه من الأحرى افساح المجال، أمام هذا الجيل في » حرية الجنس« ليعدوا منه « الشعور» بالحاجة الى « الحرية الاجتماعية» الزائدة! أجل! ان بإمكانهم أن يلهوه خمس سنوات او ست، أي طيلة « الأزمة الاجتماعية» ، فيتلهى بأهوائه و نزواته، الى حد يفقد معه شعوره، و بعد انقضاء هذه المدة يرتفع الخط.

حرية المرأة

ماذا يقصد بحرية المرأة؟ و القصد، الحرب التمويهية! من أجل الإثارة، و فتح باب الجدل،و الاختلاف بين الرجل و المرأة، و الهائها عن الاساسيات من القضايا العادلة، عن حقوقهما، عن مشكلة الشرق و الغرب، عن مشكلة المستعمرين و الخاضعين للاستعمار...

التقليد و التبعية

لقد قيل الكثير عن هذه القضية، لكن، الشيء الذي لم يتطرق أحد اليه هو « دور المرأة في قضية التقليد» . إن أكبر عنصر، يلعب دوراً أساسياً في « الحضارة الاستهلاكية» هو المرأة، حيث لها السهم الأوفر، و الدور الكبير، في نشر و اشاعة الحضارة الاستهلاكية، و تطور الأنواع و الفرق و الجماعات و العلاقات العائلية و الروابط الاجتماعية و السياسية في الثلاثين سنة الأخيرة، مما يقتضي بحثاً خاصاً لا مجال له هنا، لكني، أضرب مثلاً في التبعية و تقليد الآخرين: و المثل مأخوذ من أوروبا، حيث يذهب الأوروبيون الى الغابات لصيد القردة حية سالمة. فيضع الصيادون اناءً مملوءً بالصمغ اللزج تحت الأشجار، او على ضفاف الأنهار، في ممر القردة، و اناءً آخر في زاوية أخرى، يشبه الإناء الأول، لكن فيه ماء! و يجلسون ازاءه بانتظار مرور القردة. و عندما تأتي و تقف حذاء الإناء المليء بالصمغ، يرفع الصيادون أيديهم، فترفع القردة أيديها، يغمس الصيادون ايديهم في الأواني المليئة بالماء، فتغمس القردة ايديها في الأواني المليئة بمادة الصمغ اللزج. يخرج الصيادون أيديهم، و يضعونها على جباههم كحالة التيمم، فتعمل القردة مثلهم تماماً، يمسح الصيادون بأيديهم على وجوههم و عيونهم، فتمسح القردة ايضاً على الوجوه و العيون! يقف هؤلاء مقابل الشمس، فتقف القردة مقابل الشمس!! و بعدها.. تجف تلك المادة على وجوه القردة، فتلصق أجفانها و يتعذر فتحها! و عندها يذهب الصيادون اليها و يلقون القبض عليها بسهولة!!

الخلاصة

و في النتيجة، يعمل الاستحمار القديم على اشغال الشعوب و الهائها عن « النباهة الانسانية» و « النباهة الاجتماعية» لإنشاء جيل مطابق لمقاييسه و حساباته. كأن تكون زنته أربعة مثاقيل، و طول باعه أربعة سنتميترات فقط، و طريقته المثلى، لحية من الأمام، و عباءة من الخلف، و كتاب أدعية، و مسجد، و صلاة، و صيام، و تعزية! هذا برنامجه اليومي و السلام.

هذا جيل، ينشئه الاستحمار القديم، جيل فارغ، مضطرب، لا يتحمل مسؤولية! أما الاستحمار الجديد، فمن أجل ان يسلب « النباهة الانسانية» و « النباهة الاجتماعية» ، يتمثل و يتلخص ب « عقيلة» و سيارة « بيجو» و رزمة مناديل « كلينكس» و قدر من « المتاع» و « محفظة سفتجات» و « ديون» و السلام، لا فكر و لا تعب، لا هم و لا نصب، و لا هم يحزنون. هذا هو لا أكثر!!

أعيدوا النظر الى فتياتكم، اللواتي تزوجن، و اللواتي لم يتزوجن بعد، و انظروا الى ما كتبن عن أنفسهن، و كيف عبّرن عما يجول في باطنهن، حين كن، في الصفوف الثانوية الخامسة و السادسة، من سن ال١٨ الى ما فوق، تجدوا تشاؤما و فلسفة.. رباه، لِمَ خلقتني، ايها الموت لِمَ لا تأخذني؟ ألا موتاً يباع فأشتريه! كلام مليء بالعواطف الخالية و العبارات الروائية.. و رقة النفس، انها تظن نفسها سهرت الليل كله من شدة المرض! و لقد ارادت ان تنتحر، أو عزمت ان تلقى في بئر.. و.. و.. من هذه الخيالات و التصورات..

لكنها الآن، بعد ان تزوجت، أضاعت » طرقها المثلى« كلها في الشهرين او الثلاثة أشهر الأولى من زواجها، و أعطت طومار ذكرياتها لشخص يقرأه، و لم تذهب لتسترده، كما أنها تستحي أن تفتحه، لأي شيء؟ لأن الأقساط و الديون أمرضتها، و افلجتها تماماً، و ليس من شفاء لآلامها سوى بطاقات اليانصيب، و اقتراع بنك (عمران)(١) ، و ما أسرع ما تلتقي طرفا دائرة عمرها، فتخيب آمالها و تذهب هباءً!!

هدا جيل « الاستحمار» الحديث، وذاك جيل » الاستحمار« القديم. الاستحمار الذي بات يرصد كل واحدٍ منا، نخرج أنفسنا من شكله القديم، فيتلقانا بشكله الحديث، نتمرد عليه في مكان، فيلهينا و نقع في حبائه في مكان آخر، نرفضه من ناحية، فيسخرنا من ناحية أخرى! نتنبه الى جانب منه، فيشغلنا في جانب آخر، نكتشف حرباً ابهامية، فيوقعنا في حرب ابهامية أخرى.. و هكذا دائماً!!

و على هذا، فإن جيلنا أسير في أيدي تلك القدرات، الى حد يمكنها ان تصنعه كيفما شاءت، و طبقاً لمقاييس معينة، تنتجه كما تنتج من مادة المطاط (البلاستيك) انواع الأواني و السلع، انهم أهل علم و صنعة، و لديهم تلفزيون و صحف و معارض و مسرحيات و فنون، و الى جانب هذا كله، استخدمو الترجمة و العلوم، و علم الاجتماع، كما أن وحدة القياس العالمي لهم ايضاً.. فكيف نطمئن اذاً الى عدم الوقوع في أسر » الاستحمار القديم« او « الاستحمار الجديد» كيف؟ و نحن الصغار البسطاء الغافلون نحزن و نصاب « بعقدة» من أجل شيء يسير ثم نسر و نفرح لأمر جزئي.. أحزاننا و افراحنا و مثلنا العليا يسيرة جداً!

(١) جوائز سحب البنك الوطني

إن أي قضية فردية او اجتماعية، أدبية كانت أم اخلاقية أم فلسفية، دينية او غير دينية تُعرض علينا، و هي بعيدة عن « النباهة الانسانية» و « النباهة الاجتماعية» ، و منحرفة عنهما، هي استحمار، قديم أو جديد مهما كانت مقدسة.